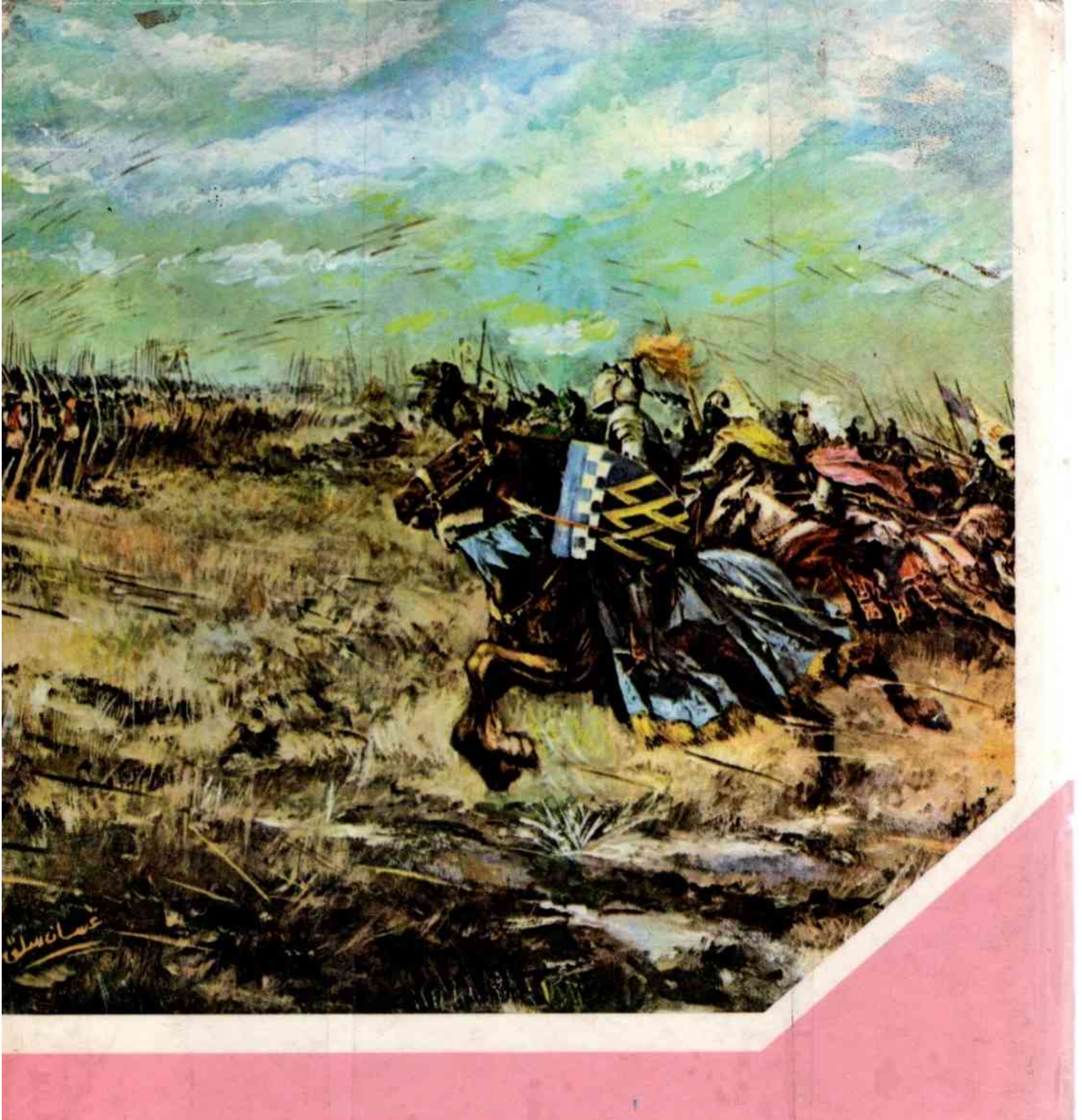


معركة نهاوند

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

معارك
وبطولات حربية
اسلامية وعربية

معركة نهاوند



دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

«نهاوند» الجولة الثانية

إذا كانتِ القَادِسِيّةُ تمثّلُ نقطةَ الذّروةِ في خطّ الصراعِ العربيِّ الفارسي الذي بدأ في عام (١١) للهجرة، فإنَّ معركةَ نهاوند تُمثّلُ نقطةَ النهايةِ في هذا الصّراعِ الذي دام أكثرَ من عشْرِ سنين، وأدّى إلى القَضَاءِ التَّامِ على الدَّوْلةِ الساسانِيَّةِ إحدى أكبرِ إمبراطورياتِ ذلك العصرِ. وإذا كانتِ القَادِسِيَّةُ قدِ اضطرتنا، حينَ درسْنَاها، إلى دراسةِ ما سبقها من حوادثَ ومعاركَ، مِمَّا كان يُعَدُّ كالبداياتِ الأولى، أو كَالأسْباب البعيدةِ والقريبةِ لها، فإنّ نهاوندَ ستضطرنا إلى دراسةِ ما حدث بَعْدَ القادسيَّةِ من

حروبٍ ومعاركَ كانتْ حلقات مُتَّصِلةً في سِلْسلةٍ واحدةٍ انتهتْ إلى هذه المعركةِ الفَاصِلةِ التي نحن بِصَدَدِ دراسَتِها هنا.

والواقعُ أنَّ القادسيةَ ونهاوند كانتا الجولتينِ الحقيقيَّتينِ اللتينِ تَخْتَصِرَانِ مُجْملَ الصِّراعِ العربِّي الفارسيِّ، وتستقطبان كُلَّ ما جرى فيه من مَعَاركَ ثانويَّةٍ لم تكنْ أكْثَرَ من مُناوراتٍ لهما. وإذا كانتِ الجولةُ الأولى، وهي القَادِسِيَّةُ، قد جاءتْ على رَأْسِ السنةِ الثَّالثةِ من بدايةِ هذا الصراعِ المريرِ، (حدثتْ معركةُ القادسيةِ في بداية عام (١٤) للهجرة)، فقد كان المُنْتَظَرُ لِلجَوْلَةِ الثانيةِ التي هي معركةُ نهاوند أَنْ تقعَ في عام (١٦) أو (١٧) على أَبْعَدِ تقديرٍ. ولم يُؤخِّرْها إلى عام (٢١) للهجرة إلاَّ التَّردُّدُ والحذرُ اللذانِ اتَّسَمتْ بهما سياسةُ عُمَرَ بن الخطَّابِ في

الفتح. وعلى هذا تبدو القادسية البداية الطبيعية لجولتنا التاريخية العسكرية الطويلة التي ستنتهي بنا إلى نهاوند.

الموقف في القادسية بُعيد المعركة

في عام (١٤) للهجرةِ وقفَ في سَهْلِ القادسِيَّةِ في جنوبِ العراق سِتَّةٌ وثلاثون ألفَ مُجَاهدٍ عربيٍّ تحت إِمْرَةِ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ، وخاضُوا معركةً من أكْبَرِ معاركِ التَّاريخِ العسكريِّ ضِدَّ مائةٍ وعشرين ألفَ مُحَاربٍ فارسيٍّ تحت قيادةِ رستمَ بنِ الفرخزاذ الأَرْمَنيِّ. وبعد أيّامٍ من القِتالِ المُتَواصِلِ في الليلِ والنَّهارِ انْهَزَمَ الفُرْسُ شَرَّ هزيمْةٍ بعد أَنْ قُتِلَ منهم نَحْوٌ من ستين ألفاً بينهمُ القائدُ العامُّ رستم، وعددٌ لا يُسْتهانُ به من كِبَارِ قادتِهم وأبطالِهم.

لقد حقَّق العربُ في القادسيةِ أعظمَ انتِصَارٍ لهم على الفُرْسِ منذ معركةِ ذي قار. وإذا علمنا أَنَّ سَهْمَ الفَارِسِ العربيِّ مِنْ غنائِمِ هذه المعركةِ بلغ اثنيْ عَشَرَ ألفَ درهَمٍ، سوى الأخماسِ التي أرْسِلَتْ إلى المدينةِ المنورةِ، وسوى الأنفالِ التي هي أَسْلابٌ فردِيَّةٌ خاصَّةٌ تُمْنَحُ المقاتلين ذوي البلاءِ الحَسَنِ في العدوِّ، إذا علمنا ذلك أدركْنا مقدارَ الخسائرِ الفَادِحَةِ التي مُنِيَ بها الفرسُ في الرِّجالِ والعتَادِ والأموالِ.

ومع ذلك كلِّهِ، لم يحاوِلْ سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ أنْ يستثمِرَ نَصْرَهُ العظيمَ إلى المدى الذي كان يسمَحُ به الموقِفُ، بل ظلَّ قابعاً في مكانه ينتظرُ أوامرَ الخليفةِ. صحيحٌ أنَّه أرسل زُهْرَةَ بنَ الحَوِيَّة على المقدِّماتِ لمطاردةِ «الجالينوس» قائدِ ميمنةِ الفُرْسِ الذي قاد عمليةَ الانسحابِ وحماية المنهزمين، وصحيحٌ أنَّه

أرسل القَعْقَاعَ بنَ عمروٍ التميميَّ وشُرَحْبيلَ بنَ السِّمْطِ لمطاردةِ الفُلولِ الفارِسِيَّةِ التي لم تستطعْ عبورَ نهرِ العتيق فتفَرَّقَتْ على ضِفافِهِ شِمَالاً وجنوباً، إلاّ أنَّ هذه المطاردةَ اكتفَتْ بقتْلِ الجالينوس وسلْبِهِ على يدِ زُهْرَةَ بنِ الحَوِيَّةِ، وبقَتْلِ بعضِ فُلولِ الفُرْسانِ على أيدي القائدين الآخرين، وعاد المطاردون في مساءِ اليوم نفسِهِ، وباتوا مع بقيةِ الجَيْشِ في القادسيةِ.

وتَزْدَادُ دهشتُنا حينَ نعلم أنَّ سببَ هذا الإحجامِ كان عمر بن الخطاب الذي أرسل إلى سَعْدٍ يأمرُهُ بالبقَاءِ في القادِسِيَّةِ، وبعدمِ التَّحرُّكِ، إلاّ بإذنِهِ، نحو الهدفِ السَّوْقيِّ (الاستراتيجي) المرسوم له من قَبْلُ، وهو المدائنُ عاصمةُ الفُرْسِ، مع أنَّه كان قد كتب إليه في إحدى رسائلِهِ قبلَ المعركةِ يقولُ:

«فإنْ منحكَ اللهُ أدبارَهم، فلا تَنْزِعْ عنهم حتّى تقتحِمَ عليهِمُ المدائنَ؛ فإنّه خرابُها إنْ شاء الله!».

فهل تغيَّرَ شيءٌ ممّا كان يتوقّعُهُ عمرُ بعد رسالتِهِ هذه، أم أنّ الخليفةَ لم يكنْ على معرفَةٍ كافيةٍ بأبعادِ النَّصْرِ العظيمِ الذي حقَّقهُ سعدٌ في القادسيةِ؟

لا ريبَ أنّ عمرَ بنَ الخطَّابِ كان مُدْرِكاً تمامَ الإدراكِ قيمةَ ما تمَّ للعربِ في القادسيةِ من نصرٍ لم يكونوا يَحْلُمُون به قبلَ هذا اليوم، ولكنّ عَدَمَ الإسراعِ في استثمارِ هذا النصرِ المؤزَّرِ على الوجْهِ الأمثلِ، وبالسرعةِ المطلوبةِ، ثُمّ البُطْءَ الشديدَ في العملياتِ العسكريَّةِ التي تلتْهُ، يرجعانِ في ظننا إلى الأمورِ الآتيةِ:

١ ـــ خرج الجيشُ العربيُّ من المعركةِ وهو في

حالةٍ قاسيةٍ من الإنهاكِ الشديدِ، نتيجةَ قِتالٍ استمر أربعةَ أيامٍ بلياليها. كما أنَّ خسائرَهُ في الأرواحِ كانتْ بالغةً برغم نصره النهائي، إذ فَقَدَ نحواً من عَشَرَةِ آلافِ شهيدٍ من خِيرةِ الجنودِ والكتائبِ المعوَّلِ عليها. فكان بهذا وذاك في حاجةٍ قُصوى إلى وقتٍ كافٍ للرَّاحةِ والإجْمامِ، والتعويضِ عن خسائره بما راح الخليفةُ يُمُدُّهُ به من كتائبَ جديدةٍ، لِيغْدُوَ أهلاً لِاسْتِئنافِ العملِيَّاتِ العسكريةِ، والمُضِيِّ قُدُماً نحو هدفِهِ النهائي، وهو احتلالُ المدائنِ عاصمةِ الفرس.

٢ ــ كان واضحاً منذ مُنَاوشاتِ المُثَنَّى بنِ حارثَةَ الشيبانيِّ على ضِفَافِ الفُراتِ الغربيةِ، وحتى معركةِ القادسيةِ، أنَّ الاستراتيجيةَ العربيةَ تتمَسَّكُ بمبدأ لا تكادُ تحيدُ عنه، هو مبدأ عَدَمِ التَّوَرُّطِ بالتوغلِ

في سَوَادِ العراقِ حيثُ الأنهارُ وَالتُّرَعُ والمستنقعاتُ، وَاسْتِدْراجِ العدوِّ الفارسي إلى حدودِ الصحراء العربيةِ لضربِهِ هناك. وكانتْ كُتُبُ الخليفتين أبي بكرٍ وعمرَ إلى قوَّادِهما تحمِلُ دائماً هذه العبارة:

«ولا تُقَاتِلْ عدوَّكَ في عُقْرِ دارِهم، بلْ قاتِلْهُم على حدودِ أرضهم، على أدنى حجرٍ من أرضِ العرب، وأدنى مدرةٍ (طينة) من أرضِ العَجَمِ. فإِنْ يُظْهِرِ (ينصر) اللهُ المسلمين عليهم، فلهم ما وراءهُم، وإِنْ يكنِ الأُخْرى، فاؤوا إلى فئةٍ (عادوا إلى أهلهم وقواعدهم)، ثم يكونوا أعلم بسبيلهم، وأجرأَ على أرضهم، إلى أنْ يَرُدَّ اللهُ الكرَّةَ عليهم (إلى أن يستعدوا لِهجمةٍ أخرى)».

لا نُنكِرُ أنَّ العربَ بقيادةِ خالدٍ أو المُثنَّى قد

توغَّلُوا أحياناً حتى بلغوا «ساباطَ» ومشارفَ المدائنِ، ولكنّ ذلك لم يكنْ إلاّ على شكلِ غاراتٍ سريعةٍ تُشْبِهُ حربَ العصاباتِ، غايتُها مفاجأةُ العدوِّ وضربُهُ لإنهاك قوَّاتِهِ وتثبيط معنوياتِهِ، وكانت تنتهي دائماً بالعودة سريعاً إلى قَوَاعِدِها في غربيِّ الفراتِ.

وقد ظلَّ هذا المبدأ مأخُوذاً بِهِ على وجهٍ ما حتى بعد تحريرِ العِراقِ كلِّهِ، إذ نرى عُمَرَ بنَ الخطّابِ يأمرُ سعداً حين كلَّفَهُ بتمصيرِ الكوفةِ ــ وهي كشقيقتها البصرة: معسكرات للجنود العرب ــ يأمرُهُ أنْ تكونَ على سيفِ (حد) الصَّحْرَاءِ، ويقول له:

«ولا تجعلْ بيني وبين المسلمين بحراً». يعني «نهراً» أو أيَّ عائقٍ مائيٍّ.

وتَمَسُّكاً بهذا المبدأ، فإنّ عمرَ بنَ الخطَّابِ راح يترقَّبُ ما يكونُ عليه رد الفعل الفارسيٍّ بعدَ القادسِيَّةِ. فإنْ كان الفرسُ يُعِدُّونَ لخوضِ معركةٍ ثانيةٍ ضَخْمَةٍ، وهذا ما كان يتوقعه، فإنَّه يفضِّلُ أنْ تكونَ على حدودِ الصَّحراءِ مثلَ كلِّ ما سبقها من معاركَ. ولم يكنْ يدورُ بخَلَدِهِ أنْ تكونَ هزيمتُهُم في القادسية، على الرغم من إدراكِهِ لضخامَتِها، قد أصابتهم بما يشبه أنْ يكونَ شللاً تامّاً.

٣ ــ على الرغم مِنِ انْتِصَاراتِ العربِ المُتَتَاليةِ في حُرُوْبِهم مع الفُرْسِ منذ ذي قار حتى القادسية (بلغتْ هذه المعاركُ نحواً من عشرين لم يخسروا منها سوى معركةِ الجِسْرِ بقيادةِ أبي عبيدٍ الثقفيِّ). فإنَّ هيبةَ الإمْبراطوريَّةِ الفارسيةِ كانتْ لا تزالُ مُهَيمِنَةً على نفوسِهِم منذ عصرِ الجاهليةِ. وهذا ما أخَّرَ

تقدُمَهمُ كثيراً، وفوَّتَ عليهم فُرَصَاً عديدة ً مُتاحةً لهم.

٤ ــ اتسمَتْ سياسةُ عمرَ العسكرِيَّةُ دائماً بالحَذَرِ والاحتراسِ الشديدين، فكان في خِلافةِ أبي بكرٍ لا يَنْفكُّ يُعارِضُ في شأنِ المغامراتِ الجريئةِ التي كانَ يقومُ بها خالدُ بنُ الوليدِ في عمليَّاتِهِ العسكريةِ. ولعلَّ هذا كان أحدَ الأسبابِ التي حملَتْهُ على تَنْحيتِهِ عن القيادةِ العامَّةِ حين آلتِ الخلافةُ إليه. وكان شديدَ الحِيْطَةِ على أرواحِ المسلمين، شديدَ الحِرْصِ على توفيرِ أَسْبابِ الرَّاحةِ والأمنِ لهم، وعَدَمِ زَجِّهِم في مُغامرات ٍغيرِ مأمونةِ العواقب، أو تعريضِهِم لمخاطرَ لا حاجةَ إليها. يشهدُ على كلِّ ذلك ما جاء في كتابِهِ إلى النُّعْمَانِ بنِ مقَرن حين وجَّههُ إلى نهاوند ــ كما سوف نرى ــ اذ كتب إليه يقول:

«فإذا أتاكَ كتابي هذا فَسِرْ بأمرِ الله، وبعونِ الله، وبنَصْرِ الله، بِمَنْ معك من المسلمين، ولا توطِّئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقَّهم فتكفرهَم، ولا تدخلنّهم غيضةً (أجمة أو غابة)؛ فإنّ رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ من مائةِ ألف دينار».

أَضِفْ إلى ذلك حِرْصَ عمرَ الشديد على أنْ يتولَّى الأمورَ كلَّها بنفسِهِ في أدقِّ تفاصيلها، فكان لا يسمح لقوَّادِهِ بفعلِ شيءٍ قبل أنْ يستأذنوه، بل لقد كان يُسمِّي لهم أمراءَ تعبياتِهِم (قادة الأجنحة والمقدمات والطلائع والساقات). وكان يطلبُ منهم أنْ يكتبوا له في كلِّ يومٍ، وأن يخبرُوهُ بكلِّ ما يجدُّ من أمورٍ، وألاّ يتحركوا إلا بإذنه. فإذا عَلمْنا أنَّ الرسالةَ كانتْ تحتاج إلى اكثرَ من أسبوعين لكي تصلَ من الجبهةِ إلى المدينةِ المنورةِ، وأنَّ جوابَها كان

يحتاجُ إلى مثلِ ذلك من الوقتِ، أدركنا سِرَّ البطءِ الشديد الذي كانتْ تجري به العملِيَّاتُ العسكريةُ في مثل هذا النوعِ من المركزيةِ الشديدة في القِيَادةِ.

كان من نتيجةِ هذه الأسبابِ مُجْتمِعَةً أنَّ الجيشَ العربيَّ قضى سنتين كاملتين في تقدُّمٍ بَطيءٍ من القادسيةِ الى المدائن، وهي مسافةٌ لا تكادُ تزيدُ على ٣٠٠ كم. (وقعتْ معركةُ القادسيةِ في المحرم من عام ١٤، ووصل المسلمون إلى ضواحي المدائنِ في صفر من عام ١٦ للهجرة).

ولكي تكتَمِلَ للقارىء صورةُ الموْقِفِ نرى من الضروريِّ تسليطَ بعضِ الضوْءِ على ما كان يجري في الجانبِ الآخر، نعني الجانبَ الفارسيَّ.

فبعد أَنْ قُتِلَ القائدُ العامُّ الفارسيُّ رستمُ بنُ الفرخزاذ تولّى القيادةَ العامَّةَ «الفيرزانُ» الذي

كان يليه في الأهمِّيَّةِ، والذي انسحبَ بما بقيَ من جيشِ الفُرْسِ المهزومِ، وعسكَرَ به في بابلَ، بعد أنْ تركَ قريباً من الحيرة مفرزةً صغيرةً تحت قيادةِ «النخيرجان»، ومفرزةً أخرى في قرية بُرس التي لا تبعدُ كثيراً عن بابلَ تحت قيادةِ «بُصْبُهرى». وكانتِ المهمةُ الموكَلَةُ إلى هاتين المفرزتين الصغيرتين مُرَاقبةَ الجيشِ العربيِّ، ورصْدَ حركاتِهِ، وإبلاغَ ذلك إلى القيادةِ العامَّةِ التي اتخذتْ من بابلَ مقراً لها.

كان الفيرزانُ يعلمُ علمَ اليقينِ أنَّه بما معه من فُلولٍ شديدةِ الإنهاكِ، مُنْحطَّةِ المعنوياتِ، أَعْجَزُ من أنْ يتصدَّى لسعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ الذي كان يقودُ جيشاً خرج من معركتِهِ ظافراً مُنْتشياً بخمرةِ النَّصْرِ المبينِ، ولكنَّهُ كان يظُنُّ أنَّ العربَ سيكتفون من هذا النصرِ بالإغارةِ على قُرى حُدودِ السوادِ للسلب

والنهبِ، ثم العودةِ إلى صحرائهم كما جاؤوا، وكما كانوا يفعلون في جاهليتهم دائماً. ذلك أنَّهُ على الرغم من أنَّ وفودَ سعدٍ إلى الفُرْسِ قبلَ القادسيةِ كانتْ تُلِحُّ دائماً على إفهامِهم أنَّ عربَ اليوم غيرُ عربِ الأمسِ، وأنَّ غاياتِهم الآن تختلِفُ كلَّ الاختلافِ عن غاياتِهِمُ القديمةِ، فإنَّ الفُرْسِ ظلُّوا غافلين عن حقيقةِ التغييرِ الذي طَرَأَ على العربِ بعد ظهورِ هذا الدينِ الجديدِ فيهم، وظلُّوا لا يرون فيهم غيرَ بدوٍ همُّهُم شَنُّ الغاراتِ على حدودِ السهولِ الخصيبةِ للسلب والنهب كُلمّا صادفوا من أهلِها غِرَّةً (غفلة)، أو آنسوا منهم ضَعْفَاً، أو أَقْحَطُوا و بخلتْ عليهم بالمطرِ السماءُ. ولا شك أنَّ إحجامَ سَعدٍ عن التقدُّمِ، وتريثَهُ في القادسيةِ مُنْتظِراً أوامرَ الخلافةِ، قد قوَّياً هذا الظَّنَّ في نفسِ الفيرزانِ، وجعلا الأملَ

يُداعبُهُ في أنْ يكتفيَ العربُ من الغنيمةِ بالإِياب، وتنتهي مأساةُ الفرسِ الحزينة عند هذا الحدِّ.

ولكنَّ رجاءَ الفيرزانِ لم يمتدَّ به العمرُ طويلاً، إذ لم يمضِ على ذلك شهران حتى جاءتْهُ الأخبارُ بتحركِ سعدٍ نحوه، فأيقن عندئذٍ أنَّ العربَ لا يبغون الآن سلْباً ولا نهْباً، بل يطلبون شيئاً أكبرَ من ذلك كثيراً. إنهم يسعون إلى ضَرْبِ القُوَّاتِ الفارسية وتحطِيمِهَا، ثم إلى الفتحِ والتحريرِ. وإذن فإنَّ غايَتَهُم لنْ تكونَ دون احتلالِ العاصمةِ، والقضاءِ التامِّ على النفوذِ الفارسيِّ في العراق.

عندما وصل الفيرزانُ بتفكيرِهِ إلى هذه النقطَةِ أدرك مبلغَ الحَرَجِ والخطرِ اللذين يهددان الموقفَ الفارسّي عموماً في العراق. إذ لا يبعد أنْ يفكرَ العربُ باحتلالِ الأُبُلَّة، وهي الممرُ الطبيعيُّ الوحيدُ

إلى الأهوازِ وفارسَ وسائرِ بلادِ العجم. وعندئذٍ يكونُ الفرسُ في العراق في وضعٍ لا يُحْسَدُون عليه، إذ تكون خطوطُ تراجعِهِم إلى بلادِهم الأصلية قد قُطِعَتْ عليهم، و يكونون قد وقعوا في المصيدةِ الرهيبةِ بين العدوِّ الزَّاحفِ عليهم من الأمامِ، و بين جبالِ زاغروس المنتصبةِ من خلْفِهِم كالجدار.

وهكذا جمع الفيرزانُ أركانَ حربِهِ على عَجَلٍ، وشرح لهم خُطورةَ الوضعِ العسكريِّ كما كان يراه، ورسم معهم خطَّةً عاجِلَةً لإنقاذِ ما بقي من القواتِ الفارسية في العراق، والانسحابِ بها إلى فارسَ حيثُ يتمُّ التعويضُ عن خسائرها، ويجري إعدادُها للجولةِ الثانية.

وكانتِ الخطوطُ العامَّةُ للخطَّةِ هي الآتية:

١ ـ تظل مفرزتا النخيرجان و بُصْبُهرىٰ في مكانيهما

تَرْصُدَانِ حركةَ العدوِّ لمعرفةِ محورِ هجومِهِ القادم، وتشتبكان معه إذا لزمَ الأمرُ لعرقلةِ تقدُّمِهِ.

٢ - في حالِ تقدم العدوِّ على محور بابل ــ ساباط ــ المدائن يتمُّ تقهقرُ سريع باتجاه الأ بُلَّة.

٣ ــ يبقى الهرمزانُ بنصفِ القُوَّاتِ المتقهقرة في الأهواز بعد أنْ يخلفَ في الأ بلة كتيبةَ رُماةٍ في حدودِ (٥٠٠) رام، لحراسةِ هذا الممرِّ الاستراتيجي، وتأمينِ انسحابِ القواتِ الفارسية الأخرى المُنْتَشِرَةِ في أنحاءِ العراق في حال اضطرارِها إلى التقهقرِ نحو فارس.

٤ - يمضي الفيرزانُ بالنصفِ الآخر من القوات المتقهقرة إلى نهاوند ليجعلَ منها مقرّاً للقِيادةِ العامَّةِ، ومركزاً للتحشد من أجل الإعداد للجولة الثانية.

٥ ـ يمضي النخيرجان ومهران الرازي إلى العاصمةِ سريعاً لِلقِيامِ بمهمَّةِ الدفاعِ عنها، بعد أَنْ يتركا قواتِهما في «كوتى» تحت إمْرةِ دهقانها شهريار لمُشاغَلَةِ العدوِّ، وتعويق تقدمه.

هذا ما كان يدورُ في رؤوسِ القَادةِ في كلا الطرفين اثر معركةِ القادسية، فما الذي جرى فعلاً على مسرحِ العمليَّاتِ العسكرِيَّةِ؟

ذلك ما سنعرِضُهُ على القارىء في الفصل القادم إن شاء الله.

نحو المدائن كما وعد الله ورسوله

اكتسَبَتِ الحربُ العربيةُ الفارسيةُ الآنَ طابَعاً مُخْتَلِفاً عن طابَعِها قبلَ القادسيةِ؛ فقد غَدَتْ بالنسبةِ إلى العرب عمليةَ تصفيةٍ لجيوبِ المقاوَمَةِ التي انتشرتْ في أنحاءِ العراق من الشِّمالِ إلى الجنوبِ، ولا سيما على محورِ القادسية ـــ المدائن. صحيحٌ أنَّ العربَ لم يصِلُوا بعدُ إلى هدَفِهم الاستراتيجي، وهو المدائن؛ ولكنَّ القواتِ المعادِيَةَ التي كانتْ تقِفُ في سبيلهم لم تكنْ تزيدُ على كونِها جيوبَ مُقاومةٍ. أمّا بالنسبة إلى الفرسِ فقد قامت استراتيجيتهم على تشتيت القواتِ المعادِيَةِ، وعرْقلةِ تقدُّمِهَا ما أمكن،

إلى حين وصولِ النجدات من عُمْقِ الأراضي الفارسيةِ.

وسنعرضُ على القارئِ فيما يلي أهمَّ وقائعِ هذه المرحلةِ بما اشْتَمَلَتْ عليه من لمحات بُطوليَّةٍ رائعةٍ.

يومُ بابلَ (جولةٌ أولى في حربِ المقاومةِ):

أقامَ سعدٌ بالقادسيةِ شهرين بعدَ انجلاءِ غبارِ المعركةِ يُريحُ جندَهُ، ويتلقّى الأمدادَ الجديدةَ، ويوافي الخليفةَ عمرَ، أولاً بأولٍ، بأخبار العدوِّ التي كانتْ تَرِدُ عليه من عناصِرِ الاستخباراتِ المُنْبثَّةِ في جميعِ أنحاءِ العراق.

وتتابعَ أصحابُ الأيامِ (أي الجنودُ العربُ العراقيون الذين كانوا تحت إمْرةِ خالدِ بنِ الوليدِ يومَ كان يعملُ في الجبهةِ العراقيةِ، والذين صحبهم معه

إلى الشام) يمدون أهلَ القادسيةِ، وتوافوا بها. كما قَدِمَتْ أَمْدادٌ أخرى من قبائل مُراد وهَمْدان وغيرهما من قبائلِ العربِ المُختلِفَةِ. فتمَّ بذلك ما كان يحتاجُ إليه سعدٌ من تعويضٍ مقبولٍ عن خسائرِهِ في معركةِ القادسية، وأصبح جيشُهُ في جاهزِيَّةٍ كاملةٍ للانطلاقِ نحو هدفِهِ.

ولما اطمأنَّ الخليفةُ عمرُ، نتيجةَ ما وردَهُ من أخبارِ الجواسيسِ، إلى أنَّ التوغُّلَ في العراق أصبح مأمونَ العواقبِ، لا يكتنِفُهُ شيءٌ من المخاطرِ، أصدر أمرَهُ إلى سعدٍ بالتحرُّكِ، وبالمضيِّ قُدُماً، ولكنْ في حذرٍ بالغٍ، نحو المدائن. وأمره أنْ يخلِّفَ النساءَ والعيالَ على نهرِ العتيق، ويترك معهم كتيبةً قويةً من الجنودِ لحمايتِهِم، وعَهِدَ إليه (أوصاه) أنْ يُشْرِكَ أفرادَ هذه الكتيبةِ في كلِّ مغنمٍ ما داموا يخلفون

المسلمين في عيالاتهم.

وعملاً بتوجيهاتِ الخليفةِ لم يَفْصِلْ سعدٌ من القادسية إلاَّ وهو على تعبئةٍ كاملَةٍ. وقد جعل على طلائعِهِ زُهْرَةَ بنَ الحَوِيَّةِ، وعلى المقدِّمات عبدَالله بنَ المعتمِّ، وشرحبيلَ بن السِّمْطِ،وهاشمَ بنَ عتبةَ بنِ أبي وقَّاصٍ، وعلى ساقتِهِ خالدَ بنَ عُرْفُطة.وترك كوكبةَ الجيشِ (قسمَهُ الأعظمَ) تحت قيادتِهِ المباشرة.

وزيادةً في الحذرِ والاحتراسِ طَبَّقَ سعدٌ في مسيرِهِ نحو هدفِهِ خطَّةً بارِعَةً ذكيةً، يمكنُ شرحُها بما يلي:

١ ـ تتقدمُ الطلائعُ أولاً تحت قيادةِ زُهْرَةَ بنِ الحويةِ. ومهمتُها استكشافُ حركاتِ العدوِّ، ومواقعِ تحشُّدِهِ، وابلاغُ ذلك إلى القيادةِ العامَّةِ. ولا يُسْمَحُ

لها بالاشتباكِ مع العدوِّ في قِتالٍ إلاّ إذا كانتِ القواتُ المعاديةُ صغيرةً نسبياً.

٢ ـ تَلْحَقُ المقدماتُ ــ وهي مؤلفةٌ من كتائبِ فُرْسانٍ خفيفة ــ بالطَّلائعِ على مسافةٍ ليستْ كبيرةً، بحيثُ تستطيعُ نجدةَ الطَّلائعِ في وقتٍ سريعٍ تدعو الحاجةُ إلى ذلك. وتسيرُ المقدماتُ ــ وهي ثلاثٌ ــ بعضها خلف بعض، ولا تَفْصِلُ بينها إلاّ مسافاتٌ قصيرةٌ: المقدمةُ الأولى تحت قيادةِ عبدِالله بنِ المعتمِّ، تتلوها المقدمةُ الثانيةُ تحت قيادةِ شرحبيل بن السِّمْط، ثم المقدمةُ الثالثةُ تحت قيادةِ هاشمِ بنِ عتبةَ.

٣ ـ تسير كوكبةُ الجيشِ المؤلَّفةُ من القلبِ والجناحين خلف المقدماتِ الثلاث، وتكون تحت الإمْرَةِ المباشرةِ للقائدِ العامِّ سعدِ بنِ أبي وقّاص.

٤ ـ وتأتي السَّاقةُ أخيراً تحت قيادةِ خالدِ بنِ عرفطةَ.

٥ ـ تكون حركةُ القِطَعِ الأربعِ على الشكل الآتي:

تتقدَّمُ الطلائعُ مسافةً مُعَيَّنَةً، ثم تتوقفُ مُنْتظِرةً لحاقَ المقدَّماتِ بها، فإذا وصَلَتِ المقدماتُ تركَتْها في مكانِها وانطلقتْ مسافةً أخرى.. وتفعلُ المقدماتُ مع الكوكبةِ الشيء نفسَهُ، فلا تتحرَّكُ من مكانِها قَبْلَ وصولِ الكوكبةِ إليها، وكذلك الأمرُ بين الكوكبةِ والساقةِ. أي إنَّ كلَّ قِطْعَةٍ من قِطَعِ الجيشِ الأربعِ تنتظرُ القِطْعَةَ التي خَلْفَها لتعطيها مكانَها، ثم تنطلقُ هي حتى تلحقَ بالقِطْعَةِ التي أمامَها وتأخذَ مكانَها.

بهذه الطريقةِ البارعةِ، التي ابتدعَتْها عبقريةُ سعدٍ منذ (١٤٠٠) سنة، والتي لم يهتدِ إليها قادةُ

الغرب إلاّ في العصرِ الحاضرِ وسموها «قفزةَ الضفدع» ــ وفَّرَ سعدٌ لجيشِهِ ثلاثةَ أمورٍ:

١ ــ امتداداً كافياً للجيشِ في الاتجاه الطولاني يفوِّتُ على العدوِّ فرصةَ القيامِ بأيِّ شكلٍ من أشكالِ المُبَاغَتَةِ.

٢ ــ حمايةً قويةً لكوكبةِ الجيش من الأمامِ والخْلفِ.

٣ ــ قدرةً على التجمعِ السريعِ عندما تدعو الحاجةُ إلى ذلك.

وهكذا تقدَّمَ زهرةُ بنُ الحويةِ على رأسِ الطليعةِ متقدماً نحو الحيرةِ حيثُ كان يُعَسْكِرُ النخيرجان. ولكنَّ هذا ما كاد يرى طلائعَ الجيشِ العربيِّ مُقْبلةً نحوه حتى ولّى الأدبارَ مِن غيرِ قِتالٍ، ومضى مُسْرِعاً حتى لحقَ بالفيرزان في بابلَ.

وقف زهرةُ ينتظرُ لحاقَ المُقدّماتِ به على ما هو مرسومٌ في الخُطّةِ، فلمّا لحقَتِ المقدماتُ به تركَها في مكانِهِ، وانطلقَ في اتجاهِ بُرْس.

وفي برس، وهي أَجَمَةٌ في موضعٍ قريبٍ من بابلَ، التقى بقوات بُصْبُهرى. ولم تكنْ إلاّ معركةً سريعةً انهزمَ الفُرْسُ على أثرها، وراحوا يسابقون الريحَ نحو بابل، يسبقهم قائِدُهم بصبهرى الذي مات بعد وصولِهِ بقليلٍ متأثراً بجراحِهِ التي أصِيبَ بها في المعركة.

توقف زهرةُ في برس، وكتب إلى القائدِ العامِّ سعدِ بنِ أبي وقّاص يخبرُهُ بما جرى، وبأنَّ فُلولَ الجيشِ الفارسي قد تجمّعَتْ كلُّها في بابلَ تحت قيادةِ الفيرزان.

صدَرَتْ أوامرُ القائدِ العامِّ إلى قِطَعِ الجيشِ

بالاجتماعِ في بابل. فلمّا تمَّ ذلك عَبّأَ سعدٌ جيشَهُ، ثم أمر بالهجومِ العامِّ على الجيشِ الفارسيِّ الذي لم يَثْبُتْ إلاَّ قليلاً حتى انهزمَ وتفرَّقتْ قطعاتُهُ في كلِّ اتجاهٍ. فمضى الفيرزانُ والهرمزانُ نحو الأُبُلَّة، على ما بيّنّا من خطَّةِ التقهقرِ التي وضعها الفيرزانُ يومَ كان ببابلَ: فأمّا الهرمزانُ فقد أقام بالأهوازِ بعد أنْ تركَ في الأبلة حاميةً قِوَامُها كتيبةُ رماةٍ من (٥٠٠) رجلٍ، وأما الفيرزانُ فقد أكمل طريقَهُ نحو نهاوند وأقام بها.

وكذلك فعل النخيرجانُ ومِهرانُ الرازيُّ، فقد مضيا مسرعين نحو المدائن بعد أنْ تركا جنودَهُما في «كوثى» تحت قِيادةِ دهقانها (رئيسها) شهريار. وعندما وصلا إلى العاصِمَةِ عبرا نهرَ دِجْلةَ، ثم قطعا الجسرَ الذي يَصِلُ بين شطري المدينةِ.

وكان من حُسْنِ حظِّ الفيرزان والهرمزان أنهما وصلا الأبلةَ واجتـازاها بجنودِهما قَبْلَ وصولِ العربِ إليها.

وذلك أنَّ عمرَ بنَ الخطَّابِ الذي لم يكن خافياً عليه خطورةُ موقع الأبلة، وكونُها ممراً استراتيجياً يَصِلُ بين العراقِ وبلادِ فارس وما وراءهَا، كان قدَ أَرْسَلَ إليها في شهر رجب من عام ١٤ للهجرة قُوَّةَ صغيرةَ قوامُها (٢٧٠) رجلاً بقيادةِ عُتْبَةَ بنِ غزوان لاحتلالها، وقطعِ الطَّرِيقِ على الإمْداداتِ الفارسيَّةِ التي يُخْشَىٰ مَجِيئُهَا من قِبَلِها، وتوفير الحمايةِ من الخلْفِ لجيشِ سعدٍ المتقدمِ نحو المدائن. ولكنَّ عتبةَ لم يصلْ إلى الأبلة إلاّ بعد أنْ كان القائدان الفارسيان قد اجتازاها إلى الاهواز ونهاوند بِمَنْ كان معهما من فُلولِ القادسيةِ وبابلَ.

وأقام سعدٌ ببابلَ أياماً يُريحُ بها جُندَهُ، ثم فَصَلَ منها مُقدِّماً أمامَهُ زهرةَ بنَ الحويةِ الذي مضى نحو «كوثى» حيثُ كان شهريارُ في انتظارِهِ ومعه جنودُ النخيرجان ومهران الرازي.

وبرز شهريارُ بين الصَّفين يدعو إلى المُبَارزةِ. وراح في غَطْرَسَةٍ زائدةٍ يقول:

ــ ألا رجل! ألا فارس منكم شديد عظيم يخرج إليَّ حتى أُنكِّل به!

فقال له زُهْرَةُ:

ــ لقد أردْتُ أنْ أبارزَكَ، فأمّا إذ سمعْتُ قولَكَ، فإني لا أخرجُ إليك إلاّ عبداً. فإنْ أَقَمْتَ له (صمدتَ أمامَهُ) قتلك ــ إن شاء الله ــ ببغيك، وإنْ فررْتَ منه، فإنّما فررْتَ من عبد.

ثم أمر أبا نباتة نائلَ بنَ جُعْشُمٍ الاعرجيَّ وكان من شُجْعَانِ بني تميمٍ ــ فخرج إليه، ومع كلِّ واحدٍ منهما الرُّمْحُ. وكلاهما وثيقُ الخَلْقِ (متين البنية)، إلاَّ أنَّ شهريارَ مثلُ الجملِ. فلمّا رأى نائلاً ألقى الرُّمْحَ ليعتنقَهُ، وألقى نائل رمحَهُ لِيَعتنقَهُ. وانتضيا سيفيهما. ثم اجتلدا واعتنقا (تماسكا بالأيدي)، فخرّا عن دابتيهما، فوقع شهريار على نائل كأنَّهُ بيتٌ، فضغطه بفخده، وأخذ الخنجرَ، وأراد حلَّ أزرارِ درعِهِ ليطعَنَهُ، فوقعتْ إبهامُهُ في فمِ نائل، فعضَّها هذا فحطَّم عظمَهَا. وصاح شهريارُ من ألمِ العضَّةِ، فانتهز نائل الفرصةَ، فتخلصَ من قبضَتِهِ، ثم وثب عليه، فجلد به الأرضَ، ثم قعد على صدرِهِ، وأخذ خنجرَهُ، فكشف درعَهُ، وطعنَهُ في بطنِهِ وجنبِهِ حتى مات. فأخذ فرسَهُ وسِوَارَيْهِ وسلبه.

فلمّا رأى جنودُ شهريار ما حلَّ بقائدِهم فرُّوا من المعركةِ من غيرِ قتالٍ، وانطلقوا في البلادِ لا يلوون على شيء.

أسد يقتل أسداً

لم يبقَ الآنَ أمامَ سعدٍ شيءٌ يَحُوْلُ بينَهُ وبينَ المدائن، فأمر بالمسير نحوها، فَانْطلقَ زُهْرَةُ بنُ الحوية على الطّلائعِ، وتبِعَهُ هاشمُ بنُ عتبةَ (ابن أخي سعد) على المقدماتِ.

وصل زهرةُ بعدَ أيامٍ إلى ساباطَ، وهي على مُنْتصفِ الطّريقِ إلى المدائن، فخرج وَالِيها شيرازاذ يطلبُ الصلحَ على أنْ يُؤدُّوا الجزيةَ، فَقَبلَ زهرةُ ذلك منهم، وكتب لهم بذلك عهداً، وارسل نُسْخَةً منه إلى سعدٍ.

ثم سار زُهْرَةُ حتى أتى المظلمَ، وهو مكانٌ قريبٌ من ساباطَ، فَاصْطَدمَ بكتيبةٍ لكسرى تُسمَّى «بوران»، وكانتْ أقوى كتائبِ الجيشِ الفارسيِّ على الإطلاقِ، حتى إنَّ جنودَها كان لهم قَسَمٌ يُردِّدُونه كلَّ يومٍ، وهو: «لا يزول مُلك فارس ما عشنا». فاشتبك معهم زهرةُ بطلائِعِهِ، فكسرهم ومزَّقَهم شرَّ مُمزَّقٍ

ووصل بعد ذلك هاشمُ بنُ عتبةَ على المُقدِّماتِ، فوقف مع زهرة في المظلم ينتظران وصولَ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ الذي ما عتمَ أنْ لحق بهما على رأسِ كوكبةِ الجيشِ.

وفي لحظةِ وصولِ سعدٍ طلع على المسلمين أسدٌ ضخمٌ شَرِسٌ يُدْعى «المُقرَّط». وهو أسدٌ كان كسرى قد اصطادَهُ من غاباتِ تلك المنطقة، وربّاه

عنده في قفصٍ، فزاد أَسْرُهُ في شراستِهِ وضراوته. ولم يعلمْ أحدٌ كيف انطلق هذا الأسدُ من قفصه في تلك اللحظةِ.

وعلى كل حالٍ، فقد زأر الأسدُ، وكشَّر عن أنيابه العُصْل (المنحنية)، وهجم على المسلمين. فنزل إليه هاشمُ بنُ أخي سعدٍ، فتلقاه بسيفِهِ، فضربه فقتله. فأَقْبَلَ سعدٌ على فرسِهِ حتى وقف بازاء هاشمٍ، فقبَّل رأسَهُ، وقبَّل هاشمٌ قدم عمِّهِ سعدٍ.

حصار بَهُرَسِير

يَشْطُرُ نهرُ دجلة عاصمةَ الفُرْسِ الساسانيين إلى شَطْرين. فأمَّا الشطرُ القائمُ على الضِّفةِ الغربيةِ، فكان يُدْعى «المدائن الدنيا»، أو «بَهُرسير»؛ وأمّا الشطرُ القائمُ على الضفةِ الشرقيةِ، والذي فيه قصورُ

الأسْرةِ المالِكَةِ، فكان يُدْعى «المدائن القصوى»، وقد يدعى اختصاراً بالمدائن فقط. وكان بين الشطرين جسر يربط بينهما.

وحين وصَلَتِ الطَّلائعُ العربيةُ إلى بهرسير كان الفرسُ قد تحصَّنُوا خلْفَ أسوارِها، وشحنوها بالرِّجالِ والعتادِ والأقواتِ استعداداً لحصارٍ طويلِ الأَمَدِ. وكان على رأسِ القواتِ المُدافِعَةِ عنها مهران الرازي الذي فَرَّ، كما رأينا، من بابل.

ووصلتْ بقيةُ قطعاتِ الجيشِ العربيِّ، فضرَبَتْ حوْلَ المدينةِ حصاراً مُحكماً. وأمر سعدٌ، فصُنِعَ له عشرون منجنيقاً راح يرمي بحجارتها أسوارَ المدينةِ الحصينةِ.

وفي أثناءِ الحِصَارِ الذي بدا أَنَّه سيطولُ بسببِ

التحصيناتِ القويَّةِ المُقَامَةِ حوْلَ المدينةِ، أرسل سعدٌ كتائبَ الفُرْسانِ الخفِيفةِ لتمشيطِ كلِّ المنطقةِ الواقعةِ غربيَّ دجلة، فرجعتْ هذه بعد أيامٍ وقد نفَّذَتْ مهمتَها على أَحْسَنِ وجهٍ، وحرَّرَتْ كاملَ السَّوادِ العراقيِّ من غربيِّ دجلة حتى حدودِ الصحراءِ العربيةِ.

وأقام سعدٌ على حِصَارِ أهلِ بهرسير شهرين، وجنودُهُ يرمونهم بالمجانيق والعرَّاداتِ (مجانيق صغار)، ويَدِبُّوْنَ إليهم بالدباباتِ، ويقاتلونهم بكلِّ عُدَّةٍ.

وأدرك مهران الرازي أنَّ المدينةَ لا بُدَّ أنْ تسقطَ إنْ عاجلاً أو آجلاً، فأمر بإخلائها سريعاً، والانتقالِ إلى المدائن على الضِّفَّةِ الشرقيةِ، وعندما تَمَّ عبورُهم

أحرقوا الجِسْرَ الواصلَ بين المدينتين، وجمعوا كلَّ السُّفُنِ التي تجري فوقَ دجلة.

ودخل سعدٌ والمسلمون بهرسير، وتحوَّلَ إليها العسكرُ، وحاولوا عبورَ دجلة فلم يَجِدُوا الجسرَ يعبرون عليه، كما لم يجِدُوا سُفُناً تحملُهم.

وفي جوفِ الليلِ لاح لهمُ الأبيضُ ـ وهو إيوان كسرى المشهور ـ فصاحوا جميعاً:

ـ الله أكبر! أبيض كسرىٰ. هذا ما وعد اللهُ ورسولُهُ.

وتابعوا التكبير حتى الصباح.

العبور إلى المدائن القصوىٰ

بعد أنْ دخل سعدٌ بهرسيرَ طلب سُفُناً لِيعبرَ

بالجيشِ الى المدائن، فلم يجد منها واحدةً، لأنَّ الفرسَ كانوا قد احتووها جميعاً. فأقام ببهرسير عِدَّةَ أيام،وأركانُ حربِهِ يلحون عليه بالعبورِ، فيأبى حِرْصاً على أرواحِ المسلمين.

وأخيراً جاءه جماعةٌ من الأعاجِمِ فدلُّوهُ على مَخاضَةٍ يمكنُ العبورُ منها، فأبى أولَ الأمرِ وتردَّدَ، ثم عَزَمَ وأقدم، وجمع جنودَه فخَطَبَهم قائلاً:

ـ إنَّ عدوَكم قد اعتصم منكم بهذا البحرِ، فلا تَخْلُصُونَ (تصلون) إليه، وهم يخلصون إليكم اذا شاؤوا، فيناوشونكم في سُفُنِهِم.وقد رأَيْتُ من الرأي أنْ تبادروا جهادَ العدوِّ بنياتكم قَبْلَ أنْ تحصركم الدنيا.ألا إني قد عزمْتُ على قَطْعِ هذا البحر إليهم.

فقالوا جميعاً:

ـ عزم اللهُ لنا ولك على الرُّشْدِ، فافعلْ.

فندب سعدٌ الجنودَ إلى العبورِ، وقال:

ـــ مَنْ يبدأ ويحمي لنا الفِراضَ لكيلا يمنعونا من العُبُوْرِ؟ (الفراض: ثغور المخاضة من الناحية الأخرى).

فانْتدبَ له عاصمُ بنُ عمروٍ، وانْتدبَ (تطوّع) بعده ستمائة من أهلِ الشَّجاعةِ والإقْدامِ، فأَمَّرَ عاصِماً عليهم، فسار فيهم حتى وقف على شاطىء دجلة، وعندئذٍ قال:

ـــ من ينتدب معي لِنمنعَ الفِراضَ من عَدُوِّكم، وَلِنحميَكُم حتى تعبروا؟

فانْتدبَ له سِتُّون منهم، فتقَدَّمَهم هو إلى حافَةِ النهر، وهو يقولُ للذين تردَّدُوا من حوله:

ـــ أتخافون؟!

وتلا قولَهُ تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً». ثم دفع فرسَهُ فاقتحم النهرَ، واقتحم زملاؤُهُ معه.

فلمّا رآهمُ الفرسُ وما صنعوا، أعدُّوا للخيلِ العربيةِ التي تقدَّمَتْ مثلَها من خيلهم، واقتحموا عليهم دجلة، ثم دنوا من عاصم وقد صار قريباً من الفِراضِ، فقال عاصم لأصحابِهِ:

ــ الرماحَ الرماحَ! أشرعوها وتوخَّوا العيون.

فطعنوا الفُرْسَ في أعينهم. فَمَنْ لم يُقْتَلْ منهم صار أعورَ. وتزلزلتْ بهم خيولُهم حتى فرَّتْ عن الفراض.

استولى عاصمٌ مع أصحابِهِ الستين على الفِراضِ، وتبعَهُ باقي أصحابه الستمائة، فجعل منهم رأسَ جسرٍ لحمايةِ عمليةِ عبورِ الجيشِ. وعندئذ أصدر سعدٌ أمرَهُ

إلى جميعِ قطعاتِ الجيش بالعبور.

ولمّا وصل آخرُ جنديٍّ عربيٍّ إلى الضفةِ الثانية، كان الفرسُ قد أخلوا العاصمةَ، وفرَّ مَلِكهُم يزدجردُ الثالثُ إلى مدينةِ حُلوان.

وحين وصل سعدٌ بجيشِهِ إلى المدائن لم يَجِدْ بها غيرَ شرذمة قد تحصَّنتْ في القصرِ الأبيضِ. فعرض عليها الاسلامَ أو الجزيةَ أو القتالَ، فاستسلمتْ مُختارةً الجزيةَ.

وهكذا دخل سعدٌ المدائن، حتى إذا انتهى إلى إيوان كسرىٰ، أقبل يقرأ قوله تعالىٰ:

«كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ۞ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ» صدق الله العظيم.

آخر أنفاس الإمبراطورية في العراق

لا يستطيعُ القارىء لِلتاريخ الفارسيِّ إلاّ أنْ يقفَ حائراً لا يدري ما سبب هذه المقاومة العنيدة المصممة التي أبداها الفرسُ تُجاهَ الفتحِ العربيِّ.

لقد اصطدَمَتِ الأمةُ الفارسيَّةُ بأممٍ كثيرةٍ قبل العربِ، فكانتِ المعركةُ الواحدةُ إذا خسرتْها كافيةً لاستسلامِها ونزولها عند إرادةِ المُنْتَصِرِ. هكذا كان شأنها مع الإسكندرِ المقدونيِّ مثلاً حين انتصرَ عليها في معركةِ بابل المشهورة. أمّا مع العربِ فقد أبدت من المقاومةِ ما لا سبيلَ إلى تفسيرِهِ وفهمِهِ: فعلى الرغم من خسارتِها أمامَهُم لما يَقْرُبُ من عشرين

معركةً قبل القادسيةِ، وعلى الرغم من فَقْدِها في القادسية ستين ألفاً من خيرةِ جُنودِهَا وقُوَّادِها، وعلى الرغم من سقوطِ عاصِمَتِها وهربِ مَلِكِها وانقطاعِ الأَمَلِ من أيِّ نجدةٍ، على الرغم من ذلك كلِّهِ ظلَّتْ تُقاتِلُ في عِنادٍ غريبٍ، كأنّها لا تُريدُ، أوْ لا تقدِرُ على الاعترافِ بأنها غدتْ أمةً مهزومة.

نقول هذا مقدمين لمعارِكِ المقاومةِ التي استمرتْ بعد سقوطِ المدائنِ والتي لم تنْتَهِ إلاّ بعد القضاءِ التامِّ على آخر القواتِ الفارسية، وسقوطِ آخرِ معاقِلِهم في العراق.

بعضُ هذه المعارِكِ كان ضخماً إلى الحَدِّ الذي يُذَكِّرُنا بمعركةِ القادسية، ولكنَّ بعضَها الآخر كان من هَوَانِ الشأن بحيثُ أَشْبَهَ أنْ يكونَ حملةً بوليسية ضد عصابة من الأشرار.

ومهما يكنِ الأمرُ، فإننا آثرنا، خوفَ الإطالةِ والإملالِ، أَنْ نقدِّمَ للقارىء فيما يلي عرضاً سريعاً لهذه الوقائع ما صَغُرَ منها وما عَظُمَ.

يوم جَلولاء

بعد أنْ سقطتِ المدائنُ في أيدي العرب، وبعد أنْ قُطِعَ خطُّ الرجعةِ من ممرِّ الأبلة، وجد المنهزمون من الفرسِ أنفسَهُم محصورين في موقف لَحِج (ضيق)، فهم بين نهرِ دجلة الذي عَبَرَهُ العربُ وانساحوا على ضفافِهِ الشرقيةِ حتى الأبلة، وبين جبالِ زاغروس التي تشهق من خلفهم مُطاولةً أعنانَ السَّماءِ. لقد أصبحوا كالأعمى الذي حُصِرَ في الزاوية، وغدوا مخيرين بين أمرين لا ثالثَ لهما: فإمّا أنْ يسلموا أعناقَهُم للعرب طائعين، وإمّا أنْ يموتوا وهم يقاتلون. وقد اختاروا الثانيةَ.

وهكذا انطلقوا شِمالاً الى جلولاء، وهي مدينةٌ تقعُ على بُعْدِ أربعين ميلاً شِمال المدائنِ، فتحصَّنُوا بها، وَاحْتفروا حولها خَنْدَقاً عظيماً أحاطوه بالحَسَكِ (نوعٌ من وسائلِ الدفاعِ كان يقومُ مقامَ الألغامِ في عصرِنا. وهو مساميرُ من حديدٍ أو خشبٍ، تُنْثرُ على الأرضِ، فإذا وطئتها الخيلُ نشبَتْ في حوافرِها وعقرتها) وتعاهدوا وتواثقوا على الثباتِ والصمودِ حتى الموت.

لمّا سَمِعَ يزدجردُ ملكُ الفرسِ بخبرِ أهلِ جلولاء، وبما صمَّمُوا عليه من الثباتِ والصمودِ، أرسل إليهم آخر من بقيَ عنده من القُوَّادِ على قيدِ الحياةِ، وهو مهرانُ الرازي ومعه رجالُه وأعوانُه وجنودُه، وأقام هو بحُلْوان يمدهم بالرِّجالِ والأقوات.

وعلم سعدٌ بذلك فبعث إليهم هاشمَ بنَ عتبةَ في

اثني عَشر ألفاً، فجاءهم، فضَرَبَ عليهمُ الحِصَارَ.

وطال الحصارُ عليهم حتى نفدَتْ أقواتُهُم، وحتى باتوا مُهدَّدِين بالموتِ جوعاً كالفئران إنْ لم يموتوا بحدِّ السيفِ، فخرجوا على المسلمين، واقتتلوا قِتَالاً شديداً لم يَقْتَتِلُوا مثلَه إلاّ ليلةَ الهريرِ في القادسيةِ. ولم يَطُلِ الوقتُ بهم حتى انهزموا يَمْنَةً ويَسْرَةً، وداستْ خيلُهُمُ المذعورةُ حسكَ الحديدِ الذي كانوا قد نثروه، فوقعوا فيما كانوا أعدوا للمسلمين، وعقرت دوابهم، وصاروا رَجَّالةً، وتبعهم المسلمون فلم يُفْلِتْ منهم إلاّ القليلُ. وقُتِلَ منهم يومئذٍ مائةُ ألفٍ.

يوم تكريت

عَلِمَ سعدٌ بانْصِرَافِ الفُلولِ من الفرسِ إلى تكريت وتحَصِنِهم بها، ومعهم أحلافُهم من القبائلِ

العربيةِ التي لم تكنْ قد أسلمتْ بعدُ، وهي قبائلُ إيادٍ وتغلبَ والنَّمِرِ، فأرسل إليهم عبدَالله ِبنَ المعتمّ في خمسةِ آلافِ مُقاتلٍ.

وحين وصل عبدُالله ِبنُ المعتمِ وجد الفُرْسَ قد خندقوا بها، فحصرهم أربعين يوماً، تزاحفوا فيها أربعةً وعشرين زَحْفاً. وكانوا أَهْونَ شوكةً من أهلِ جلولاء.

ولمّا أبطأ الفتحُ أرسل القائدُ العربيُّ جواسيسَ من قِبَلِهِ اتصلوا بالقبائلِ النصرانيةِ المُحالفةِ للفرسِ ودعوها إلى الانضمامِ إلى العربِ المسلمين، فقبلتْ هذه القبائلُ العرضَ، واشترطَتِ السلمَ والأمانَ لها، فأرسل إليهم القائدُ يقول:

— إنْ كنتم صادقين بذلك فاشهدوا أنْ لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً رسولُ اللهِ، وأَقِرُّوا بما جاء به من

عِنْدِ اللهِ، ثم أعلمونا رأيَكم.

فأرسلوا إليه أنهم قد قبلوا ذلك. فقال لهم:

ـ إذا سمِعْتُم تكبيرَنا فَاعْلموا أنَّا قد نَهَدْنا (نهضنا) إلى الأبوابِ التي تلينا (التي هي في مواجهتنا) لِندخُلَ عليهم منها، فخذوا بالأبوابِ التي تلي دجلة، وكبّروا واقتلوا من قدرتم عليه.

ونهد عبدُاللهِ بنُ المعتم والمسلمون، وكبّروا، وكبَّرَتْ إيادٌ وتغلبُ والنَّمِرُ وقد أخذوا بالأبوابِ، فحسب الفرسُ أنَّ المسلمين قد أتوهم من خلفهم ودخلوا عليهم من جِهَةِ دجلة، فأسرعوا إلى الأبوابَ التي عليها المسلمون، فأخذتهم السيوفُ: سيوفُ المسلمين من أمامِهم، وسيوفُ العربِ الذين أسلموا ليلتئذٍ من خلْفِهم. فلم يُفْلِتْ منهم إلاّ مَنْ أَسْلَمَ من قبائل إياد وتغلب والنمر.

وسارع عبدُالله ِبنُ المعتمٍّ إلى استغلالِ نَصْرِهِ، فسرَّح قائدَ مُقدِّمتِهِ رِبْعيَّ بـنَ الأفكل العنزي إلى «نينوى» و «الموصل»، وقال له:

ـ اسبِقْ إليهما قبل وصولِ الأنباء ِإليهما.

وسرّح معه تغلب وإياد والنمر، وهي القبائلُ التي أسلمتْ حديثاً، ومعهم رؤساؤُهُم. وساروا جميعاً حتى اقتحموا عليهم فيهما.

وأسْقِطَ في أيدي أهلِ المدينتين نتيجةَ هذا الهجوم غيرِ المُنْتظرِ، فهرب بعضُهم، وأقام آخرون بعد أنْ قبلوا بالجزية.

أيام أخر

وظهرتْ حركاتُ مُقاومَةٍ أخرىٰ في «ماسَبَذان» و «هيت» و «قرقيسياء»، فأرسل إليها سعدُ بنُ

أبي وقَّاصٍ من المدائنِ حملاتٍ عسكرِيَّةً قضتْ عليها.

وهكذا لم يحلَّ شهرُ رجب من عام ١٦ للهجرة حتى كان الأمرُ قدِ اسْتَتَبَّ للعربِ في جميعِ أنحاءِ العراق، من قرقيسياء عند مُلْتقى الخابورِ بالفراتِ غرباً، إلى الموصل شِمالاً، إلى قمم زاغروس شرقاً، إلى الأ بلة جنوباً.

وانصرفَ العربُ بعد ذلك إلى تنظيمِ البلادِ، فعيَّنُوا الولاةَ والقُضاةَ، وأقاموا الحامياتِ، وحشروا الثغورَ بينهم وبين الجبالِ بالجنودِ المرابطين، وكلَّفُوا الفلاحين بصيانةِ الطرقِ والجسورِ، ودلالةِ المسلمين وضيافةِ ابن السبيلِ، وتأديةِ الجزيةِ على قَدْرِ طاقَتِهم.

ولأسْبابٍ دفاعيةٍ، وأخرى صحيـةٍ، أمر عمرُ ابن الخطَّابِ بتمصيرِ (بناء) مدينتين تكونان مقرَّين

للجنودِ العربِ العاملين في العراقِ مع أسَرِهم، فبُنِيَتْ مدينتا البصرة والكوفة، وانتقل سعدُ بنُ أبي وقّاص ٍإلى الكوفةِ، فجعلها مقرَّ قيادتِهِ العامّةِ، وكان مسؤولاً عن كلِّ البلادِ التي افتتحها، أمّا البصرةُ فقد وُلِّيَ عليها عتبةُ بنُ غزوان، فاتخذها مقراً لقيادتِهِ العامَّةِ، وكان مسؤولاً عن المنطقةِ المُحيطةِ بها، ومنطقةِ السَّاحلِ المُؤَدِّيَةِ إلى الأهوازِ وفارس.

ورأى عمرُ فيما تمَّ إنجازاً كاملاً لخطَّةِ الفتحِ، ووصولاً إلى الغَاياتِ النهائية للاستراتيجية العربيةِ، فأمر بالتَّوقُّفِ عندَ جبالِ زاغروس، وعدمِ مُلاحقَةِ الفرسِ إلى ما وراءها، وقال كلمتَهُ المشهورةَ التي تُظْهِرُ بوضوحٍ سياستَهُ الدِّفاعيةَ:

ــ «لَوَدِدْتُ أن بين السواد (العراق) وبين الجبل (جبال زاغروس) سدّاً من نار، لا يَخْلُصُونَ

إلينا، ولا نَخْلُصُ إليهم. حَسْبُنا من الريف السَّوادُ.
إني آثرْتُ سلامةَ المسلمين على الأَنْفالِ (الغنائم).

ولكنْ هل رضيَ الفرسُ بما تمَّ، واستسلموا إلى الأمرِ الواقعِ، وقنعوا من هزائمهم بما مُنوا به حتى الآن، أم كانوا لا يزالون يَحْلُمون بالعودةِ إلى العراق وفَرْضِ سيطرتِهِم عليه كرَّةً أخرى؟

هذا ما سنراه مُفصَّلاً في الصفحات الآتية إنْ شاء الله.

الحرب تنتقل إلى الأهواز

نُحاولُ في هذا الفصلِ أنْ نعطيَ القارىءَ أولاً صورةً للوضعِ العامِّ للفرسِ بعد طردِهم من العراق إلى ما وراء الجبل، ثم نركّز الضوءَ على أحدِ قادتِهم الفارين، وهو الهرمزان الذي حَمَلَ عِبءَ الجهدِ العسكريِّ وحده ضِدَّ العربِ، ثم نختمُ الفصلَ ببيان النهايةِ التي انتهى إليها هذا القائدُ في المدينةِ المنورةِ.

يزدجردُ الملكُ الشريدُ

تصلُحُ حياةُ يزدجردَ لأنْ تكونَ مادةً خصبةً

لقصةٍ حزينةٍ تصوِّرُ حياةَ إنسانٍ ظلَّ شبحُ الموتِ يُطارِدُهُ من ميلادِهِ حتى آخر حياتِه. وأشدُّ ما كان في سيرةِ هذا الإنسانِ التعسِ من مأساوية ساخرةٍ مُرَّةٍ هو أنَّه قضى عمرَهُ في الهرب من كلِّ مكانٍ كان يتوقَّعُ أنْ يلقى الموتَ فيه. فلمّا لقيه الموتُ أخيراً، لقيه في حيث لم يكن يتوقع.

ولنبدأ القصة من أولها:

كان يزدجردُ — إلى ما قَبْلَ معركةِ القادسيةِ بأشهرٍ قليلةٍ — شاباً عادياً لا يكادُ يعرفُهُ إلاّ قليلٌ من الناسِ. وحتى هؤلاء لم يكونوا يعرفون حقِيقَةَ نسبِهِ، وأنَّه واحدٌ من أبناءِ الأسْرةِ المالِكَةِ الساسانية. ذلك أنَّ أمَّهُ — وهي إحدى زوجاتِ أو إماءِ شهريار بنِ كسرى — فرَّتْ به، وكتمَتْ أمرَهُ، خوفاً عليه من الموتِ الذي لحق بأمثالِهِ من أبناء البيتِ المالِكِ،

نتيجةَ ما قام به خُلفاءُ كسرى المُتَعاقبون من تقتيلِ الذكورِ من الأسْرةِ الكسروية للتخلُّصِ من المنافسين.

فلمّا قُتِلَ آخرُ هؤلاء الخلفاء بدسائسِهِمُ التي لم تكنْ تهدأ، لم يَجِدِ الفرسُ سوى النساء من الأسرةِ المالكةِ يُجْلِسُونَهُنَّ على العرشِ الساسانيِّ. ولم تكنِ النساءُ بأحسنَ حالاً من الرجالِ؛ فقد راح بعضُهُنَّ يكيدُ لبعضٍ، وعَزَلَ وقتل بعضُهُنَّ بعضاً، فاختلَّتِ الأمورُ، واضطربَتِ الأحوالُ، حتى ضجَّ الشعبُ، وضاقَ ذرعاً بِهِنَّ وبمكائدِهِنَّ، وراح يطالبُ بمَلِكٍ ذكرٍ يُمْسِكُ بزمامِ الأمورِ، ويقودُ السفينةَ المُشْرِفَةَ على الغرقِ إلى شاطىء السلامَةِ.

وهكذا راح قوّادُ المملكةِ وأهلُ الرأيِّ فيها يبحثون عن ذَكَرٍ من آلِ كسرى لا يزالُ حياً، فلم

يجدوا بعد البحثِ الطويلِ غيرَ هذا الفتى المدعو يزدجرد، فأتَوا به، فأجلسوه على العرشِ باسمِ يزدجردَ الثالثِ.

ولمْ تكدِ البلادُ تفرحُ بمليكها الجديدِ الشاب (كان عمره ٢١ عاماً)، بل لم يكدِ الشّابُّ يفرحُ بنفسِهِ وبمُلْكِهِ، حتى طلعتْ نواحي الخيلِ العربيةِ من القادسيةِ حاملةً لِدولتِهِ الهلاكَ، ومجددةً له الشؤمَ الذي لازمَهُ كلَّ عُمرِهِ.

ولم يكنْ للفتى معرفةٌ بحربٍ، ولا خبرةٌ بقِتالٍ، ولكنْ ما حاجتُهُ إلى ذلك وفي قوّادِ الفُرْسِ ما يكفيه المؤونةَ، ويحمِلُ عنه العِبْءَ؟ وهكذا راح من عاصمته يقذِفُ العربَ بالقائدِ تلو القائدِ، وبالجيشِ بعدَ الجيشِ، والعربُ لا ينكُصُونَ، بل يتقدَّمُونَ باطِّرادٍ، لا يقف في وجوههم شيءٌ، ولا يحولُ بينهم

وبين غاياتِهم حائلٌ. لقد كان هؤلاء الفاتحون كالنّارِ التي كلمّا قذفْتَها بالحطبِ ازدادَتْ تأججاً وضِراماً.

وهكذا قُدّر للفتى التعِسِ أنْ يفرَّ من مسقطِ رأسِهِ مرتين: مرة وهو طِفلٌ تحملُه أمُّهُ، وأخرى وهو مَلِكٌ يحمل خزيَهُ وعارَهُ.

تلك كانت قصة يزدجردَ مذ كان طفلاً إلى أنْ رأيناه في حُلْوانَ هارباً من وجهِ عدوِّهِ خائفاً مُترقِّباً. فما الذي حدث بعد ذلك؟

بعد أنْ خسِرَ الفرسُ آخر معاركهم المهمةِ في جلولاء، وبعد أنْ وَقَعَ منهم في هذه المعركةِ مائةُ ألفِ قتيلٍ، وبعد أنْ هرب آخرُ قوّادِهِمُ البارزين مهران الرازي إلى خانقين حيثُ لحق به القعقاعُ بنُ عمروٍ فقتله، بعد هذا كلِّهِ انقطع آخرُ خيطٍ للرجاءِ

في نفسِ الملكِ يزدجردَ، فجمع خاصَّتَهُ وقال لهم:
ــ إنَّ القومَ لا يلقون جمعاً إلاّ فلُّوهُ. فما ترون؟

فقال أحدهم، وكان يُدعى المَوْبِذ:

ــ نرى أنْ تخرُجَ فتنزل «اصطخر»، فإنها بيتُ المملكةِ، وتضم إليك خزائِنَكَ، وتوجِّهُ الجنودَ.

فأخذ برأيه، وترك حلوان مهزوماً مولِّياً وجهَهُ شطرَ المشرقِ.

وهنا تضطربُ الأخبارُ اضطراباً لا يسمح برسم خطٍ لِسيرِ هذا الملكِ في تشرُّدِهِ الذي انتهى به إلى «مرو». كلُّ ما نعلمه أنَّه زار مُدُناً فارسيةً كثيرةً، وتجوَّلَ بين مقاطعات عديدةٍ، يدعو الفرسَ إلى الالتفافِ حولَهُ، ومساعدتِهِ في حربِهِ الضروس ضِدَّ العربِ الفاتحين.

و يبدو أنَّه لم يجدْ في البلادِ التي زارها ما كان يرجو من نُصْرةٍ وتأييدٍ؛ اذ لم يكن امراءُ هذه البلادِ مُتَحمِّسِين لقضيةِ ملكٍ كانوا يشكون في حقيقةِ انتسابِهِ إلى البيتِ المالك. أضف إلى ذلك طَمَعَ كلِّ أميرٍ في أنْ يستقلَ بمقاطعتِهِ مُنْتهِزاً فرصةَ اضطرابِ الأحوالِ، وانهيارِ السُّلطةِ المركزيةِ على أثر سقوطِ العاصمةِ. ولعل هذا يُفَسِّرُ لنا عَدَمَ استقرارِ الملكِ المهزومِ في بلدٍ واحدٍ، وتنقله من مكان إلى آخر، حتى انتهى به الأمرُ إلى مرو.

ومن مُسْتقِرِّهِ الجديدِ هذا راح يُؤلِّبُ الفرسَ، و يَحُضُّ أمراءهُم على حربِ العربِ برسائِلِهِ الحماسِيَّةِ البليغة، بعد أنْ لم يبقَ لهُ من السلطةِ غير إثارةِ النخوةِ الفارسية الهاجِعَةِ. وقد جاء في إحدى رسائِلِهِ إلى أهلِ فارسَ والأهوازِ: «كيف رضيتم يا

أهلَ فارسَ أن قد غلبتكم العربُ على السَّوادِ وما والاه والأهواز، ثم لم يرضوا بذلك حتى تورَّدُوكم (جاؤوكم) في بلادِكم وعقرِ داركم؟!».

ونتركُ الملكَ الشريدَ ههنا يُثيرُ الهمَمَ، ويُنْهِضُ العزائمَ، على وعدِ أَنْ نُكْمِلَ للقارىء قصةَ حياتِهِ البائسة بعد الحديثِ عن معركةِ نهاوند التي هي غايةُ كتابِنا هذا.

ونتنقل الآن إلى الكلامِ على الجهدِ العسكريِّ الفارسيِّ الذي حمل عبأَهُ الهرمزانُ بعد هربِهِ من بابلَ، والذي كان السبب في عدولِ عمرَ بنِ الخطَّابِ عن سياستِهِ الدفاعِيَّةِ، والسماحِ للعربِ بالانْسِيَاحِ في بلادِ الفُرْسِ حتى كانت معركة نهاوند المشهورة.

الهرمزانُ يحملُ لواءَ الحربِ

كان الهرمزانُ ينتمي إلى إحدى أكبرِ سبعِ أسرٍ تتوزَّعُ الشرفَ والسيادةَ في الأمةِالفارسية كلِّها. وكانت منطقةُ نُفوذِ أسْرتِهِ تتركَّزُ في مهرجان قذق، ومُقَاطعةِ الأهوازِ التي تُتاخِمُ حدودَ البصرةِ. فلمّا هرب مع الفيرزان إثر هزيمتهما في بابل، أقام بتلك البلادِ، وجَمَعَ إليه أعوانَهُ وأتباعَهُ، وراح من هناك يُديرُ الحربَ ضِدَّ العربِ، يدفعُهُ إلى ذلك حقدٌ عميقٌ على الذين هزموه في القادسيةِ وبابلَ،وقتلوا ابنه «آذين» الذي قاد حركةَ المقاومةِ في «ما سَبَذَان».

بدأ الهرمزان أعمالَهُ العسكريَّةَ بغاراتٍ سريعةٍ كان يشنُّها على موضعين قريبين من البصرة، هما مِيْسان ودست ميسان. وكان ينطَلِقُ بغاراتِهِ هذه من محورين هما مَناذِر ونهر تيرى. وكان كلاهما في

حدودِهِ، وداخل منطقةِ نُفوذِهِ.

وتَغَاضى أميرُ البصرة عتبةُ بنُ غزوانَ أوّلَ الأمرِ عن هذه الغاراتِ، عملاً بسياسةِ عمرَ القاضيةِ بالتوقفِ عند حدودِ العراق الطبيعيةِ، وعَدَمِ الإنْسِيَاحِ في عُمْقِ الأراضي الفارسيةِ. ولكنَّ الهرمزانَ تمادىٰ في غيهِ، وَاسْتَرْسَلَ في ضلالِهِ، مُتوهّماً في نفسِهِ القوةَ، وفي خصومِهِ الضعفَ والخذلانَ، حتى ضاق عتبةُ بنُ غزوانَ به، ولم يجدْ بُدّاً من تأديبِ هذا القائدِ الحاقِدِ المغرورِ. فأرسل إلى سعدِ بنِ أبي وقّاص يستمِدُّهُ، فأمدَّهُ هذا بنعيمِ بنِ مقرن. ونعيمِ بنِ مسعود،

ورسم عتبةُ بنُ غزوان خطّةَ حملتِهِ التأديبيةِ على الشكل التالي:

١ ــ يتمركزُ المددُ القادمُ من الكوفةِ بين نهر

تيرى، وبين ميسان ودستميسان، للحيلولَةِ بين الهرمزان ونجدتِهِ لأهلِ نهر تيرى.

٢ ــ يتمركزُ سَلْمىٰ بنُ القَيْن وحَرْمَلَةُ بنُ مُرَيْطة، وهما من قُوَّادِ عتبةَ، بين ميسان ودستميسان وبين مناذر في انتظارِ الهرمزان للاشتباكِ معه في المعركة.

٣ ــ يتفقُ مع بني العَمِّ، وهم قبيلةٌ عربيةٌ كانتْ تسكنُ تلك المنَاطِقَ، على إحْداثِ ثورتين في مناذر ونهر تيرى مُتَوَافِقَتَين مع المعركةِ، لِشغلِ حاميتي هذين البلدين عن نَجْدَةِالهرمزان في قِتَالِهِ ضِدَّ سلمى وحرملة.

ونُفِّذَتِ الخطَّةُ بدقَّةٍ بالغةٍ؛ فبينما كان القتالُ على أشدِّهِ بين الفريقين، جاء الخبرُ الهرمزانَ بأنَّ مناذر

ونهر تيرى قد سقطتا ، فَفَتَّ ذلك في عضدِهِ، ثم هُزِمَ جندُهُ، وقتل المسلمون منهم اعداداً كبيرة، وأسروا أعداداً أكبر، وأتبعوهم حتى وقفوا على شاطىء دُجَيْل، وأخذوا ما دونه، وعَسْكَرُوْا بحيالِ سوقِ الأهوازِ، وقد عبر الهرمزان جِسْرَ سوقِ الأهوازِ، وأقام بها.

ولمّا رأى الهرمزانُ ما لا طاقةَ له به طلب الصُّلْحَ، فأجابَهُ عتبةُ بنُ غزوانَ إلى ذلك، وصالحهُ على الأهوازِ كُلِّها، ما عدا نهر تيرى ومناذر، وما غُلِبُوْا عليه في سوقِ الأهوازِ مِمّا أخذه المسلمون عَنْوَةً، فإنَّه لا يُردُّ إليهم.

ثم شجر خلافٌ بين بعضِ رؤساءِ بني العمِّ و بين الهرمزانِ في حدودِ الأَرْضَيْن كان من نتيجتِهِ أنْ نقض الهرمزانُ الصُّلْحَ، واستعدَّ للحربِ، واستعان

بالأكرادِ، فكَثُرَ جندُهُ، واستفحل أمرُهُ.

وانتهى الأمرُ إلى عتبةَ بنِ غزوان، فكتب إلى عمرَ بنِ الخطّابِ يعلمُهُ بذلك، و يستأذِنُهُ في مطاردةِ الهرمزان إلى داخلِ الأهوازِ، فأَذِنَ له بذلك، وأمدَّهُ بحرقوص بنِ زُهيرٍالسعدي، وعَهِدَ إليه أنْ يجعلَهُ أميرَ الحملةِ، ثم أميراً على ما يفتحُهُ من بلاد.

وسار حرقوص إلى الهرمزان بعدما انضم إليه كلٌّ مِن سلمى وحرملة، ومضوا جميعاً حتى وصلوا جِسْرَ سوقِ الأهوازِ حيثُ كان الهرمزان في انتظارِهم.

وأرسل المسلمون إليه يُخيِّرُوْنَهُ بين أنْ يعبرَ إليهم أو يعبروا إليه، فأختار الثانيةَ، فعبر المسلمون إليه، واقتتلوا اقتتالاً شديداً، حتى هُزِمَ الهرمزانُ وجندُهُ، وفرَّ إلى رامهرمز، ودخل حرقوص سوقَ الأهوازِ فأقام بها، ودانَتْ له المنطقةُ كلُّها إلى حدودِ «تُسْتَر».

يوم تستر

لم يرتدعِ الهرمزانُ عن غَيِّهِ برغم الهزيمتين الجديدتين اللتين مُنيَ بهما في ميسان وجسرِ سوق الأهواز، فراح يترقَّبُ الفُرَصَ، وهو في رامهرمز، لِيَسْتأنِفَ الحربَ ضِدَّ العربِ. ولم يَطُلِ انتظارُهُ كثيراً، ولكنْ لا لِينتَقِمَ من العربِ، بل ليخزيه اللّٰهُ خزياً فوقَ خزيه.

وذلك أنَّ يزدجردَ ــ كتب إلى أهلِ فارس يذكِّرهم الأحقادَ، و يؤنبهم على تخاذُلِهم، و يثيرهم أَسَفاً على ما خرج منهم. فتحرك أهلُ فارسَ وأهلُ الأهوازِ، وتعاقدوا وتعاهدوا، وتواثقوا على النُّصْرَةِ.

ولمّا عَلِمَ عمرُ بنُ الخطّابِ بذلك كتب إلى أبي موسى الأشعريِّ أميرِ البصرة الجديدِ أنْ يُوجِّهَ إلى

الأهوازِ جيشاً كثيفاً تحت إمْرَةِ سهلِ بنِ عديٍّ. ولما كان عمرُ لا يجهلُ النوايا العدوانية التي يُكنُّها الهرمزانُ للعربِ، فقد خشيَ أنْ ينتهزَ فُرْصَةَ تحرُّكِ أهلِ فارسَ والأهوازِ لِيضرِبَ جيشَ سهلِ بنِ عديٍّ من الخلْفِ، ولذلك كتب إلى سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ أميرِ الكوفةِ أنْ يُرْسِلَ النعمانَ بنَ مقرن على رأسِ جيشٍ كثيفٍ لِيكونَ مَدَداً لجيشِ البصرةِ، وليرابطَ بإزاءِ الهرمزان المُتربِّصِ برامهرمز حتى يتبيَّنَ أمرَهُ، وتنكشف نواياه.

وخرج النعمانُ بنُ مقرن في أهلِ الكوفةِ، فأخذ وسط السَّوادِ حتى قطع دجلةَ بحيالِ ميسان، ثم أخذ البرَّ إلى الأهوازِ، وانتهى إلى نهرِ تيرى فجازَهُ، ثم جاز مناذرَ، وسوقَ الأهوازِ، ومرَّ في مسيرِهِ هذا بالقُوَّادِ الثلاثةِ: حرقوص، وسلمى، وحرملة، فتجاوزهم،

ومضى قُدُماً نحو الهرمزان في رامهرمز.

لمّا سَمِعَ الهرمزانُ بمسيرِ النعمانِ إليه بادرَهُ راجياً أنْ ينتصِرَ عليه إذ كان وحده. والتقى الجيشانِ على مقرُبَةٍ من مدينة «أربك» التي لا تبعدُ كثيراً عن رامهرمز. واقتتلوا قِتالاً شديداً انهَزَمَ الفُرْسُ على أثرِهِ، وهرب قائدُهُمُ الهرمزانُ هزيمَتَهُ الخامسةَ إلى تستر، بعد أنْ أخلى مدينةَ رامهرمز التي دخلها النعمانُ.

وفي هذه الأثناء كان جيشُ البصرةِ تحت قيادةِ سَهْلِ بنِ عَدِيٍّ قد وصل إلى سوقِ الأهوازِ. فلمّا وصلَتِ الأخبارُ بهزيمةِ الهرمزان في رامهرمز، وَانْحيازِهِ إلى تُسْتَر التي أصبحتْ مركزاً لتحشُّدِ القُوَّاتِ الفارسيةِ، مال سَهْلُ بنُ عديٍّ بجيشِهِ نحوها، بعد أنْ كتب إلى قوادِ الحاميات التي خلّفها وراءهُ باللحاقِ به.

وبعد أنْ أراحَ النعمانُ جيشَهُ في رامهرمز قليلاً، نهد به يُرِيدُ تُسْتَر. وكذلك فعل أبو موسى الأشعريُّ على رأسِ قوَّةٍ كبيرةٍ فصل بها من البصرة إنفاذاً لأوامِرَ تلقَّاها من عمرَ بنِ الخطَّابِ.

وهكذا راحَتِ الجيوشُ العربيةُ تزحفُ نحو تستر من كلِّ جانب:

١ ــ النعمانُ بنُ مقرن من رامهرمز ومعه جيشُ الكوفةِ.

٢ ــ سهْلُ بنُ عديٍّ من سوقِ الأهوازِ ومعه جيشُ البصرةِ.

٣ ــ أبو موسى من البصرةِ ومعه مَدَدٌ من أهلِهَا.

٤ ــ حرقوص وسلمىٰ وحرملةُ ومعهم حامياتُهُمُ التي كانتْ تُعَسْكِرُ في نهر تيرى ومناذر وسوقِ الأهوازِ.

والتقَتِ الجيوشُ العربيةُ الأربعةُ في تُستَر، وكان الفرسُ قد تحصَّنُوا بأسوارِها المنيعةِ، وخنادِقِها الواسِعَةِ، فضربَ العربُ الحِصَارَ عليها من جهاتِها الأربعِ.

وطال الحصارُ أشهراً كان القتالُ يجري فيها على شَكْلِ زُحوفٍ سريعةٍ بلغتْ ثمانين زحفاً. وكانتِ الخطَّةُ التكتيكيةُ التي طبَّقَها الهرمزانُ ـ وهو الآنَ القائدُ العامُّ للقواتِ الفارسيةِ ـ تتلخص بما يلي:

١ ـ تقومُ عناصِرُ الاستطلاعِ بالتجولِ فوقَ أسوارِ المدينةِ لمراقبةِ الجيشِ العربيِّ، وتحديدِ أَضعفِ النقاطِ فيه.

٢ ـ بعد ذلك، يقومُ الفُرْسُ بحشْدِ قوَّاتِهم خلْفَ بابِ المدينةِ المواجِه للنقطة الضعيفة التي تمَّ تحديدُها.

٣ ــ وفي الوقتِ الذي يراه الفُرْسُ مُناسِباً لهم يفتحون بابَ المدينةِ ليشنوا منه هجوماً صاعِقاً ومفاجئاً على القوات العربية.

٤ ــ عندما تهبُّ بقيةُ قطعاتِ الجيشِ العربيِّ لنجدةِ القطعةِ التي تعرَّضَتْ للهجوم، يكون الفُرْسُ قدِ انْسَحَبُوا، وأغلقوا على أنفسِهِمُ البابَ، وامتنعوا خلْفَ الأسوارِ.

ولا شك أنَّها كانتْ خطَّةً دقيقةً مُحْكَمَةً، لأنَّها تمنحُ الفرسَ ميزتين من أهم ميزات النجاحِ: فهي أولاً تجعلُ المبادرَةَ في أيديهم دائماً، فيقاتلون متى أرادوا، و يوقفون القِتالَ متى شاؤوا؛ وهي ثانياً تسمحُ لهم بتحديدِ مكانِ المعركةِ وزمانِها بالشكلِ الذي يُناسِبُهُم.

ومع ذلك فإنَّها لمْ تفدْهُم فائدة كبيرةً، وكانَتِ

الجولاتُ التي خَسِرُوها أكثرَ من الجولاتِ التي ربحوها. و يرجع ذلك لسببين مهمين:

أولهما: أنَّ خطَّةً من هذا النوع تحتاجُ من أجل نجاحِها إلى سلاحِ فُرْسانٍ خفيفٍ وقويٍّ، لِيَقومَ بتنفيذِ الهجوم الصَّاعقِ المُباغِتِ. وهذا ما كان يَفْتقِرُ إليه الفرسُ افتقاراً شديداً، إذ كان جُلُّ اعتمادِهم على سلاحِ الرُّماةِ من المشاة.

ثانيهما: أنَّ العربَ، وقد انكشَفَتْ لهم خطَّةُ الفرسِ، عمِلُوا على إحباطِها بأنْ استغلوا سلاحَ فرسانِهِمُ القويَّ استغلالاً جيداً، فأقاموا أمامَ كلِّ بابٍ من أبوابِ المدينة مفارزَ قويَّةً من الخيَّالةِ السريعةِ المُتَأهِّبةِ للرَّدِ السريعِ على أية مُفاجأةٍ قد يقومُ بها العدو.

وهكذا اضطر الفرسُ إلى أنْ يخوضوا كثيراً من

جولاتِهم على شكلِ قِتالِ صفوفٍ عاديٍّ، تسبقه المبارزاتُ الفرديَّةُ المعتادة.

وقد مُنِيَ الفرسُ في هذه الجولاتِ بخسائرَ فادحةٍ في الرِّجالِ، وتألَّقَتِ البطولةُ والشجاعةُ والفروسيةُ العربيةُ كأَرْوَعِ ما يكون التألق، وراح البصريون والكوفيون يتنافسون في الفِداءِ، ويتسابقون إلى الشَّهادةِ، كأنهم يتسابقون إلى مغانِمَ ثمينةٍ. وظهر في الفريقين أبطالٌ جُدُدٌ لم يكونوا معروفين حتى الآن. منهم كعبُ بنُ ثورٍ، وأبو تميمةَ، وحبيبُ بنُ قرةَ، وربعيٌّ بنُ عامرٍ، وعامرُ بنُ عبدِ الأسود. ولكنَّ أروعَ الجميعِ ولا شك كان البراءَ بْن مالكٍ ومجزأةَ ابن ثورٍ اللذين قَتَلَ كلٌّ منهما، من أولِ الحصارِ إلى الفتحِ، مائةَ مُبارزٍ سوى من قتلاه في غيرِ المبارزة.

وفي آخرِ زحفٍ اشتدَّ القتالُ، فقال المسلمون

للبراء بنِ مالكٍ:

ـ يا براءُ، أقسمْ على ربك لَيَهزمنّهم لنا.

فقال:

ـ اللهمَّ اهزمهم لنا، واستشهِدْني.

فهزموهم حتى أدخلوهم خنادِقَهم، ثم اقتحموها عليهم، فهربوا ولاذوا بمدينتِهِم، فأحاطَ العربُ بها، وأحكموا الحِصَارِ حولَها.

فبينما هم على ذلك، وقد ضاقَتْ بِهِمُ المدينةُ، وطالتْ حربُهم، خرج إلى النعمانِ رجلٌ منهم، فاستأمنه على أنْ يدلَّهُ على مدخل يأتون منه المدينةَ، ويكون فيه فتحها، فأمَّنُوه، فقال لهم:

ـ انهدوا من قِبَلِ مخرجِ الماءِ، فإنكم ستفتحونها.

واتفق أنه في اليوم نفسِهِ وقف أحدُ رُماةِ الفرسِ

على السور في الناحية المواجِهَةِ لقطعةِ أبي موسى، فرمى بسهمٍ رُبِطَتْ به رسالةٌ، فأخذه المسلمون، وفضوا الرسالةَ، فإذا فيها:

— إني قد وثقت بكم، وأمنْتكم، وأنا أستأمنكُم على أنْ أدلَّكم على مكانٍ تأتون منه المدينةَ، و يكون منه فتحُهَا.

فرموا إليه بسهمٍ يحملُ رسالةً يؤمِّنونه فيها، فرمى إليهم برسالةٍ يذكرُ لهم فيها مخرجَ الماءِ. وهو المكانُ نفسُهُ الذي ذكره الفارسيُّ الآخر للنعمان.

وندب أبو موسى رجالَهُ لهذه المهمةِ، فَانْتدبَ له بشرٌ كثيرٌ، كان على رأسِهِمُ البطلُ المغوارُ مجزأةُ بنُ ثورٍ. كما ندب النعمانُ رجالَهُ، فانْتدبَ له جماعةٌ كبيرةٌ، كان على رأسها سُوَيدُ بنُ المثعبة.

وفي الليلِ التقى عند مخرجِ الماءِ مجزأةُ بنُ ثورٍ مع

أصحابِهِ من أهلِ البصرة، بسويدِ بـنِ المثعبةِ مع أصحابه من أهلِ الكوفة. وبدأ سويدٌ فانْسَرَبَ برجالِهِ، ثم لحق به مجزأةُ برجالِهِ. فلمّا اجتمعوا داخلَ سورِ المدينةِ ـــوكان المسلمون خارجَ الأسوارِ على أهْبةِ الاستعدادِـــ كبَّرُوا من الداخل، فكبّر سائِرُ المسلمين من الخارج، وفُتِحَتِ الأبوابُ، فاندفع المسلمون إلى داخلِ المدينةِ، فلم يثبُتْ لهجومِهم أحدٌ.

وأدرك الهرمزانُ الخطرَ المحدِقَ به. فهرب إلى القلعةِ في وسطِ المدينةِ يُريدُ الامتناعَ بها، فَبَصُرَ به الرِّجالُ الذين دخلوا من مخرجِ الماءِ، فلحقوا به وحصروه. فلمّا رأى سُبُلَ النجاةِ قد سُدَّتْ أمامَهُ التفَتَ إلى مطارديه وقال لهم:

ـــ ما شئتم (أي اختاروا). قد ترون ضيقَ

المكانِ الذي أنا فيه وانتم. ومعي في جعبتي مائةُ نشابةٍ. ووالله ما تصلون إليّ ما دام معي منها نشابة. وأنتم تعلمون أنه لا يُخْطِىءُ لي سهمٌ. وما فائدتكم من أسري إذا أصبْتُ منكم مائةً بين قتيلٍ أو جريحٍ؟

فقالوا له:

ــ فماذا تريد؟

قال:

ــ أنْ أضع يدي في أيديكم على حُكْمِ عمرَ يصنعُ بي ما يشاءُ.

فقالوا:

ــ لك ذلك.

فرمى بقوسِهِ، وأَمْكَنَهُم من نفسِهِ، فشدُّوه وثاقاً. ولكنَّه ــ ويا للأسف! ــ لم يستسلمْ هكذا إلاّ بعد

أنْ قتلَ بنشّابِهِ أعظمَ بطلين في هذه المعركةِ، وهما البراءُ بنُ مالكٍ، ومجزأةُ بنُ ثورٍ.

الهرمزان يدخل في الاسلام

بعد هذه المعركةِ الهائلةِ سار المسلمون إلى مدينةِ السوس فافتتحوها بعد حِصَارٍ لم يدمْ طويلاً، ثم عادوا إلى قاعدتِهِم في البصرة بعد أنْ تركوا حامياتٍ قويةً في البلادِ التي فتحوها.

ومن البصرة خرج وفدٌ إلى المدينةِ المنوّرةِ كان على رأسِهِ أنسُ بنُ مالكٍ، والأحنفُ بـنُ قيسٍ، وقد صحبوا معهم أسيرهمُ الخطيرَ الهرمزان.

فلمّا دخلوا المدينةَ هيؤوا الهرمزان في هيئَتِهِ، فألبسُوْهُ كُسْوَتَهُ من الدّيباجِ الذي فيه الذَّهبُ، ووضعوا على رأسِهِ تاجاً يُدْعى «الآذين» مُكللاً بالياقوتِ، كما وضعوا عليه حليتَهُ التي كانتْ له،

كيما يراه عمرُ والمسلمون في هيئَتِهِ، ثم خرجوا به على النَّاسِ يُريدون عمرَ بنَ الخطَّابِ في منزلِهِ، فلم يَجِدُوهُ، فسألوا عنه، فقِيْلَ لهم: إنَّه في المسجدِ يستقبِلُ وفداً قدم عليه من الكوفة. فانطلقوا يطلُبُونَهُ في المسجدِ، فلم يرَوْهُ. فلمّا انصرفوا مرُّوا بِغِلْمانٍ من أهلِ المدينةِ يلعَبُون، فقال الغلمانُ لهم:

ــ ما تلدُّدُكم؟ (ما سبب تَلَفُّتِكم يميناً وشِمالاً وتحيّركم؟) تريدون أميرَ المؤمنين؟ فإنّه نائمٌ في ميمنةِ المسجدِ مُتوسِّداً بُرْنُسَهُ.

وكان عمرُ قد جلس لِوَفْدِ أهلِ الكوفةِ في برنسٍ. فلمّا فرغ من كلامِهِم، وارتفعوا عنه وأخلوه، نزع برنسَهُ، ثم توسَّدَهُ فنام.

فانطلقوا ومعهم النَّظَّارةُ، حتى إذا رأَوْهُ جلسوا دونَهِ. وليس في المسجدِ نائمٌ ولا يقظانُ غيره.

والدُّرَّةُ (نوع من المقارع) في يدِهِ معلقةٌ. فقال الهرمزان:

ــ أين عمرُ؟

فقالوا له:

ــ هو ذا!

وجعل رِجالُ الوفدِ يُشِيرون إلى النَّاسِ طالِبين منهم السكوتَ حتى لا يوقظوا الخَلِيفةَ النائمَ على الأرضِ. وأصغى الهرمزان إلى الوفدِ، ثم سألهم:

ــ أين حرسُهُ وحجَّابُهُ؟!

فقالوا:

ــ ليس له حارسٌ ولا حاجبٌ.

ولم يكدِ الهرمزان يُصدِّق ما يسمعُ، اذ كيف يُعْقَلُ أنْ يكونَ الرجلُ الذي قوَّضَ الممالِكَ، وثلَّ العروشَ، وأقضَّ مضاجعَ الملوك والأباطرةِ، وزلزلَ

الأرضَ تحتَ أقدامِ الأمَمِ، كيف يُعْقَلُ أنْ ينامَ هكذا بكلِّ بساطةٍ على الأرضِ، لا يقومُ على حراسَتِهِ أحدٌ، بل لا يكادُ يشعُرُ بوُجودِهِ أحدٌ؟

قال الهرمزان وقد أخِذَ بجلالِ الموقف:

ــ إذنْ ينبغي له أنْ يكونَ نبياً!!

فقالوا:

ــ بل يعملُ عملَ الأنبياءِ.

وكَثُرَ النَّاسُ، فاستيقظ عمرُ بالجَلَبَةِ، فاستوى جالساً، ثم نظر إلى الهرمزانِ فقال:

ــ الهرمزان؟

ــ نعم

فتأمَّلَهُ وتأمّلَ ما عليه وقال:

ــ أعوذُ باللهِ من النَّارِ! وأستعينُ اللهَ، والحمدُ للهِ الذي أذلَّ بالإسلامِ هذا واشياعَهُ! يا

معشرَ المسلمين، تمسَّكُوا بهذا الدينِ، واهتدوا بهدي نبيكم، ولا تُبْطِرَنَّكُمُ الدنيا؛ فإنّها غرَّارة ٌ.

فقال الوفدُ:

ــ هذا ملكُ الأهوازِ؛ فكلِّمْه.

فقال:

ــ لا. حتى لا يبقى عليه من حليتِهِ شيءٌ.

فَرَمَوْا عنه بكلِّ شيءٍ عليه إلاّ شيئاً يسترُهُ، وألبسوه ثوباً صفيقاً (سميكاً). ووقف المغيرةُ بنُ شعبةَ يترجم بينه وبين عمرَ ريثما يأتي المترجمُ الرسمِيُّ زيدٌ الذي اسْتُدْعِيَ على عَجَلٍ.

وبدأ عمرُ فقال:

ــ هيه يا هرمزانُ. كيف رأيتَ وبالَ الغَدْرِ، وعاقبةَ أمرِ اللهِ؟

ــ يا عمرُ، إنّا وإيّاكم في الجاهليةِ كان اللهُ قد

خلّٰى بيننا وبينكم، فغلبناكم إذ لم يكنْ معنا ولا معكم. فلمّا كان معكم بعد الإسلام غلبتمونا.

ــ إنّما غلبتمونا في الجاهليةِ باجتماعِكُم (بوحدتكم) وتفرُّقِنا. ولكنْ قُلْ لي، ما عذرُكَ، وما حجتُك في انتقاضِكَ مرَّةً بعد مرةٍ؟

ــ أخافُ أنْ تقتلني قَبْلَ أنْ أخبرَك.

ــ لا تَخَفْ ذلك.

ــ فإني عطشان.

ــ هاتوا له ماءً.

فجاؤوه بقَدَحٍ غليظٍ خَشِنٍ، فأبىٰ أنْ يشربَ به لخشونَتِهِ، وقال:

ــ لو متُّ عطشاً لم أستطِعْ أنْ أشربَ في مثلِ هذا!

فأتوه بالماء في إناء ٍيرضاه، فجعلتْ يدُهُ ترتجفُ، وقال:

ــ أخافُ أنْ أقْتَلَ وأنا أشربُ الماءَ.

فقال عمرُ:

ــ لا بأسٍ عليك حتى تشربَهُ.

فسكب الماءَ على الأرضِ، فقال عمرُ:

ــ أعيدوا عليه (هاتوا له ماء آخر). ولا تجمعوا عليه القتلَ والعطشَ.

فقال:

ــ لا حاجةَ لي في الماءِ. إنَّما أردْتُ أنْ أستأمِنَ به.

ــ إني قاتِلُكَ.

ــ قد آمنتني.

ــ كذبت!

فقال أنسُ بنُ مالكٍ أحدُ رجالِ الوفد:

ــ صَدَقَ يا أميرَ المؤمنين. قد آمنتَه.

ــ وَيْحَكَ يا أنسُ! أنا أومِنُ قاتلَ مجزأةَ والبراءِ؟! واللهِ لتأتينَّ بِمَخْرَجٍ (بحجة) أو لأعاقبنَّكَ!

فقال أنسُ بنُ مالكٍ:

ــ قلتَ له «لا بأسَ عليك حتى تخبرني»، وقلتَ له «لا بأسَ عليك حتى تشربَهُ».

وأيَّد بقيةُ أعضاءِ الوفدِ أنسَ بنَ مالكٍ فيما قاله، فأقبل عمرُ على الهرمزان وقال:

ــ خدعتني. واللهِ لا أَنْخَدِعُ إلاّ لمسلمٍ.

فأيقن الهرمزان ألاّ خلاص له إلاّ بالإسلامِ، فأَسْلَمَ، فأجرى عليه عمرُ مرتباً ضخماً مقدارُهُ ألفا درهمٍ في السنةِ، وفرض عليه الإقامةَ في المدينةِ

المنورةِ.

تلك كانتْ نهاية أَحَدِ الهاربين الثلاثةِ. وهمُ الملكُ يزدجردُ، والفيرزانُ، وصاحِبُنا الهرمزانُ. فماذا كانت نهاية الآخرين؟

ذلك ما سنقرؤه في الفصلِ القادمِ إنْ شاء اللهُ.

نهاوند: فتح الفتوح

بالرغم من كلِّ ما حدث حتى الآن، فإنَّ عمرَ ابنَ الخطّابِ ظلَّ مُتمسّكاً بسياستِهِ الدفاعِيَّةِ القاضيةِ بالاكتفاءِ بالعراق، وعَدَمِ التوغُّلِ والانسياحِ في عُمْقِ البلادِ الفارسيَّةِ. وكان ينظرُ إلى ما فَتَحَ المسلمون من مُدُنِ مُقاطعةِ الأهوازِ على أنّها نقاطٌ دفاعيةٌ مُتقدِّمةٌ، لا نقاط تحشُّدٍ ووثوبٍ إلى ما وراءها.

ولكنَّ الفُرْسَ كانت لهم استراتيجيةٌ أخرى. كانوا يرون أنَّ معركةَ العراقِ لم تكنْ سوى جولةٍ واحدةٍ في هذه الحربِ الضروس، وأنَّهم إذا خسروها، فإنَّهم لم يخسروا الحربَ كلَّها بعدُ. وعلى

هذا راحوا يُعِدُّوْنَ أنفسَهُم للجولةِ الثانيةِ التي رَجَوْا أنْ يربحوها إذْ هم يقاتلون على أرضِهِم، و يُنافِحُونَ عن ديارهم وأوطانهم.

الفرس يستعدون للحرب

ظلَّ الفيرزانُ ــ وهو أكبرُ قوَّادِ الفرسِ بعد مقتلِ رستم في القادسيةِ ــ ظلَّ سبعَ سنوات ٍقابِعاً في نهاوند لا يُحرِّكُ ساكناً (هرب من بابل عام ١٤، وقاد معركة نهاوند عام ٢١). ولا ندري السببَ الذي حملَهُ على هذا الانتظارِ كلَّ هذه المُدَّةِ الطويلةِ. ربما كانتِ الأَحْوالُ الداخليةُ لا تسمحُ له بالقِيامِ بأيِّ جُهْدٍ عسكريٍّ، وربما كان ينتظرُ أنْ يصلَ الهرمزانُ بحروبِهِ ضِدَّ العربِ إلى درجةِ الإِنْهاكِ للقواتِ العربيةِ، وعند ئذٍ يتحرَّكُ هو للإجهازِ الكاملِ عليها، وربما كان قد استَمْرَأَ استقلالَهُ بمقاطعةِ الجبلِ الغنِيَّةِ،

واطمأنَ إلى أنَّ الهرمزان يحميه من الخطرِ العربيِّ ما دام مُسْتقلاً بالأهوازِ التي تفصِلُ بينه وبين العربِ.

ومهما كان السببُ، فإنَّه وجد نفسَهُ الآن مُضطراً إلى التحرُّكِ، وإلى التحرك السريع قبل أنْ يفوتَ الأوانُ؛ فالهرمزانُ الذي كان يَحُولُ بينه وبين العربِ وقع أسيراً في أيديهم، ومقاطعةُ الأهوازِ التي كانتْ تقومُ له مقامَ الخَطِّ الدفاعيِّ الأوّلِ قد سقطتْ كلُّ مُدُنِها، وغدا الآنَ على تماسٍّ مُباشرٍ مع القواتِ العربيةِ التي لا بُدَّ أنْ تطمحَ بأبصارِها، عاجلاً أو آجلاً، إلى الاستيلاءِ على بِلادِ الجبلِ التي تتمتَّعُ بثرواتٍ طبيعيةٍ يسيلُ لها اللعاب.

ولكنَّ الفيرزانَ كان يُدرِكُ جيداً أنَّه أعجزُ من أنْ يتصدى للعرب بقُوَّاتِهِ المحليةِ المحدودة. وإذن فلا بُدَّ من حَشْدِ كلِّ طاقاتِ الأمَّةِ الفارسيةِ لخوضِ

معركةِ المصير. ومن حُسْنِ الحظِّ أنَّ ذلك لا يزالُ مُمْكناً، فالملكُ يزدجردُ الذي هو رمزُ الأمةِ لا يزالُ على قيدِ الحياةِ، وبالإِمْكانِ أنْ يطلبَ منه إثارةَ الشَّعْبِ، وإنْهاضَ الهممِ، ودفعَ القوى كلِّها إلى الانضمامِ إليه، والعملِ تحتَ إمرتِهِ.

وهكذا أرسل إلى يزدجردَ اللاجىءِ إلى مرو عاصمةِ خُراسانَ يطلُبُ منه توجيه استنفارٍ إلى جميعِ المقاطعاتِ الفارسِيَّةِ. ولم يكنِ الملكُ ينتظرُ أكثرَ من ذلك، فما هي إلاّ أيامٌ حتى كان كتابُهُ المثيرُ للحماسةِ قد بلغ كلَّ مقاطعةٍ، وحتى نَفَرَ له كُلُّ قادِرٍ على حملِ السلاحِ. وراحتِ الجنودُ تتوافَدُ إلى نهاوندَ من كلِّ جهةٍ؛ فاجتمع بها ثلاثون ألفاً من «الباب» والمقاطعاتِ الواقعةِ في طريقِها، وستون ألفاً من خُراسانَ والمقاطعاتِ الواقعةِ في طريقها،

وستون ألفاً أخرى من سِجِسْتانَ وفارسَ والمقاطعاتِ الواقعةِ في طريقهما.

ولمّا تمَّ للفيرزان ما أراده من تحشُّدٍ، جمع أمراءَ جُنْدِهِ الذين بلغوا مائةً وخمسين ألفاً، وقال لهم:

ــ إنَّ مُحمَّداً الذي جاء العربَ بالإسلامِ لم يكنْ يطمعُ فينا، ثم خلفه أبو بكرٍ فكان كصاحِبِهِ لا يكادُ يرنو ببصرِهِ إلى بلادِنا، وإذا طمع فإنمّا كان يطمعُ في غارةٍ سريعةٍ على حدودِ السَّوادِ ممّا يلي بلادهم، لِيَسْلُبوا و ينهبوا، و يرتدُّوا بعد ذلك راجعين. أما عُمرُ هذا فقد طال مُلْكُهُ وعَرُضَ، واقتطع منكمُ السَّوادَ (العراق) بأجمعِهِ، ثم لم يرضَ حتى استولى على الأهوازِ، وراح يهدِّدُ فارسَ التي هي عمادُ المملكةِ. وهو آتيكم إنْ لم تأتوه، فقد أَخْرَبَ بيتَ مملكتِكم (عاصمتكم)، واقتحم بلادَ ملكِكُم. ولا شيءَ

يوقفُهُ عند حدِّهِ إلاّ إذا أخرجْنا من بلادِنا آخرَ جُنديٍّ من جُنودِهِ، ثم استولينا على قاعدتيهِ العسكريتين اللتين بناهما في العراقِ باسم البصرةِ والكوفةِ، ثم شغلناه بالحربِ فوقَ أرضِهِ، وفي عُقْرِ دارِهِ.

عمر يعدل عن سياسته

بلغتْ أنباءُ هذه الحشودِ الفارسيةِ عمرَ بنَ الخطَّابِ وهو بالمدينةِ، فاهْتَمَّ لذلك اهتماماً كبيراً، ورأى أنَّه لا بُدَّ من إعادةِ النَّظرِ في مُجْملِ سياستِهِ الدفاعيةِ في الجبهةِ الشرقية. ولكنْ لا بُدَّ قبل ذلك من مَعْرِفَةِ الأسْبابِ الحقِيقِيَّةِ الكامنَةِ وراء عِنادِ الفُرْسِ الذي لم يهدأ أو يَضْعُفْ خلالَ سبعِ سنوات، والذي يدفعُهم إلى الانتقاضِ على العرب مرَّةً بعد أخرى.

وكان عنده وَفْدٌ من أهلِ البصرةِ فاستدعى رؤساءَهُم وقال لهم:

ــ أخبِرُوني، لعل المسلمين ينالون أهلَ الذِّمَّةِ بالأذىٰ، وبأمور ينتقضون عليكم بسببها؟!

فقالوا:

ــ ما نعلم إلاّ وفاءً.

قال عمرُ:

ــ فما بالهم ينتقضون؟!

فلم يَجِدْ عند أحدٍ منهم جواباً يشفيه، ويهديه السبيلَ، حتى وقف الأحْنفُ بـن قيسٍ فقال:

ــ يا أميرَ المؤمنين، أخبرُكَ. إنَّكَ نهيْتَنا عن الانسياحِ في البلادِ، وأمرتنا بالاقْتِصارِ على ما في أيدينا. وإنَّ ملكَ الفرسِ حيٌّ بين أَظهرِهِم. وإنَّهم لا يزالون يُساجِلُونَنا ما دام مَلِكُهُم فيهم. ولم يجتمعْ

مَلِكَانِ فاتفقا حتى يُخْرِجَ أَحَدُهُما الآخرَ. وقد رأيْتَ أنَّا لم نأخذْ شيئاً بعدُ إلاّ بانبعاثِهم وانتقاضِهم وغدرِهم. وإنَّ مَلِكَهُم هو الذي يُحرِّضُهم و يبعثُهم. ولا يزالُ هذا دَأبَهم حتى تأذنَ لنا فنسيح في بلادِهم، ونزيل مَلِكَهم، ونخرجه من مَمْلكتِهِ وعزِّ أمتِهِ. فهنالك ينقطعُ رجاءُ أهلِ فارسَ.

فقال عمر:

ــ صدقتني واللهِ! وشرحتَ لي الأمرَ عن حقه.

ومنذ هذه اللحظة أقام عمرُ خطَّتَهُ على أساسِ مُلاحقةِ القُوّاتِ الفارسيةِ في كلِّ مكانٍ، والقضاءِ عليها حيثما وُجِدَتْ، ومطاردة يزدجرد إلى آخرِ الحدودِ الفارسيةِ شرقاً وشمالاً، لقتلِهِ إذا أمكن القبضُ عليه، أو لإخراجِهِ إلى ما وراء الحدودِ، وقطعِ تأثيرِهِ المُحرِّضِ على الأمةِ الفارسية.

مؤتمر عام للشورىٰ

وعلى عادتِهِ في ألاّ يقطعَ في أمرٍ ذي بالٍ إلاّ بعد استشارةِ المسلمين، فإنَّ عمرَ بن الخطّابِ بدأ باستشارةِ الهرمزان، فَاسْتَدْعاه، وقال له:

ــ لا بأسَ. انصحْ لي؛ فإنَّكَ أعلمُ بأهلِ فارسَ.

ولم يكنِ الهرمزان ممن ينصحُ للمسلمين. وكيف يفعلُ وهو الذي نذر حياتَهُ لقتالِهِم والانتقامِ منهم؟ لذلك فقد انتهزها فرصةً لغشِّهِم والكيدِ لهم وتضليلِهِم عن الوجه الصحيح، فقال لعمرَ:

ــ نعم. إنَّ فارسَ اليوم رأسٌ وجناحانِ. فأمّا الرأسُ ففي نهاوندَ، وأمّا الجناحانِ ففي فارسَ وخُراسانَ. والرأيُّ عندي يا أميرَ المؤمنين أنْ تقطعَ الجناحين يَهِنَ الرأس (يضعف).

وظَنَّ الهرمزان أنَّه خدع عمرَ، وأنّه سيقدِّمُ إلى قومِهِ بالمكْرِ نَصْراً لم يستطعْ أنْ يقدِّمَهُ إليهم بالقتالِ. ولكنَّ عمرَ كان أَفْطَنَ من أَنْ تنطلِيَ عليه الحيلةُ، فقال له:

ـ كذبْتَ يا عدوَّ الله! بل أعمدُ إلى الرأسِ فأقطعُهُ، فإذا قطعَهُ اللهُ لم يعصِ الجناحان.

ولم يكنْ عمرُ بالذي يجهلُ الهرمزان وما يكنُّهُ في صدرِهِ من أحقادٍ ضِدَّ الإسلامِ والمسلمين. ولكنَّهُ استشاره ليكشفَ خبيئةَ نفسِهِ، ويعملَ بعكسِ مشورتِهِ.

فأمّا إذْ اطمأنَّ إلى صوابِ رأيه في تحديدِ الهدفِ الذي سيوجِّهُ نحوه جُهدَه العسكريَّ، فإنّه الآن في حاجةٍ إلى مشورةِ المسلمين لتعيينِ القائدِ، وانتقاءِ الجنودِ، وغيرِ ذلك من الأمورِ المهمة.

وهكذا أمر أنْ يُنادى في الناسِ:

ـ الصلاة جامعة!

فاجتمع الناسُ في المسجدِ، وقام على المنبرِ، وأخبر الناسَ الخبرَ، واستشارهم، وقال:

ـ هذا يومٌ له ما بعدَهُ من الأيامِ. ألا وإني قد همْمتُ بأمرٍ، وإني عارضُهُ عليكم، فاسْمَعوه ثم أخبروني، وأَوْجِزوا ولا تنازعوا فتفشلوا، وتذهب ريحُكُم. ولا تُكْثِروا ولا تُطِيلوا فتفشغ (فتتشعب) بكم الأمورُ، ويلتوي عليكم الرأيُّ. أَفَمِنَ الرأيِّ أنْ أسيرَ فيمن قِبَلَي، ومن قدرْتُ عليه، حتى أنزلَ منزلاً واسطاً بين هذين المصرين (الكوفة والبصرة). فَأَسْتَنْفِرَهُم، ثم أكونَ لهم ردءاً (أي أقودهم وأكون أمامهم) حتى يفتحَ اللهُ عليهم، ويقضيَ ما أحِبُّ؟

فقام طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ، فتشهّد ثم قال:

ــ أما بعدُ يا أميرَ المؤمنين، فقد أحكمَتْكَ الأمورُ، وعجمَتْكَ البلايا، وأنتَ وشأنك، وأنتَ ورأيك! لا نَنْبُو في يدَيك، ولا نكلّ عليك. إليك هذا الأمر؛ فَمُرْنا نُطِعْ، وادعُنا نُجبْ؛ فإنّك وليُّ هذا الأمرِ. وقد بَلَوْتَ وجرَّبْتَ واختبرْتَ، فلم ينكشفْ شيءٌ من عواقِبِ قَضَاءِ اللهِ لك إلاّ عن خيارٍ.

ثم جلسِ، فعاد عمرُ فقال:

ــ إنَّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيّامِ؛ فتكلَّمُوا.

فقام عثمانُ بنُ عفّانَ، فتشهَّدَ وقال:

ــ أرى يا أميرَ المؤمنين أنْ تكتبَ إلى أَهْلِ الشَّامِ فيسيروا من شامِهِم، وتكتبَ إلى أهلِ اليمن فيسيروا من يمنهم، ثم تسيرَ أنتَ بأَهْلِ هذين الحرمين (مكّةَ والمدينةِ) إلى المصرين (الكوفةِ والبصرةِ)،

فَتَلْقَى جمعَ المشركين بجمْعِ المسلمين، فإنّك إذا سرْتَ بِمَنْ معك وعندك، قلَّ في نفسِكَ ما قد تكاثر مِنْ عَدَدِ المشركين، وكنتَ أعزَّ عزاً وأكثر. يا أميرَ المؤمنين، إنَّ هذا اليومَ له ما بعده من الأيام، فَاْشهَدْهُ برأيك وأعوانِكَ، ولا تغبْ عنه.

ثم جلس، فعاد عمرُ فقال:

ــ إنَّ هذا يومٌ له ما بعده من الأيام؛ فتكلموا.

فقام عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال:

ــ أما بعدُ يا أميرَ المؤمنين، فإنك إنْ أشخصْتَ أهلَ الشامِ من شامهم سارتِ الرومُ إلى ذراريّهم، وإنْ اشخصتَ أهل اليمن من يمنهم سارتِ الحبشةُ إلى ذراريهم، وإنك إذا شَخَصْتَ من هذه الأرضِ انتقضتْ عليكَ الأرضُ من أطرافِهَا وأقطارِهَا، حتى يكونَ ما تَدَعُ وراءكَ أهمَّ مّما بين يديك (أمامك) من

العَوْراتِ (نقاط الخلل).

أَقْرِرْ هؤلاء في أَمْصارِهم، وَاكْتُبْ إلى أَهْلِ البصرةِ، فَلْيتفرَّقُوا فيها ثلاثَ فرق: فَلْتقمْ فرقةٌ لهم في حرمهم وذراريهم، وَلْتقم فرقةٌ في أَهْلِ عهدِهم لِئَلاَّ ينتقِضُوا عليهم، وَلْتَسِرْ فرقةٌ إلى إخوانِهِم بالكوفةِ مدداً لهم.

إنَّ الأعاجمَ إنْ ينظروا إليك قالوا: هذا أميرُ العربِ، وأصل العرب. فيكون ذلك أشدَّ لِكَلَبِهِم، فيتألبوا عليك.

وأَمَّا ما ذكرتَ من مَسِيْرِ القوم، فإِنَّ اللهَ أكره لمسيرهم منك، وهو أَقْدَرُ على تغييرِ ما يكره. وأما ما ذكرتَ من عَدَدِهِم، فإِنَّا لم نقاتلْ فيما مضى بالكثرةِ، ولكِنَّا كُنَّا نقاتلُ بالنَّصْرِ. فأَقِمْ مكانك.

كانت مشورةُ عليٍّ في غايةِ السَّدَادِ، ولا شك. وهي إذا دلَّتْ على شيءٍ، فإنما تدل على حِسٍّ استراتيجي سليمٍ. ويمكنُ توضيحُ خطوطِها بعبارةٍ عصرية على الشكلِ التالي:

١ ــ لا يجوزُ الاستعانةُ بِجُنودِ الجبهتين الشامِيَّةِ واليمنيةِ كما اقترح عثمانُ بنُ عفَّانَ، لأنَّ ذلك سيُعَرِّضُ القطرين إلى هجومٍ مُحْتملٍ جداً من قِبَلِ الروم والحبشةِ.

٢ ــ ليس من الحكمةِ أنْ يتولّٰى الخليفةُ قيادةَ الحملَةِ، لأنَّ إصابتَهُ اذا ما وقعتْ ستكونُ كارثةً سياسيةً وعسكريةً معاً، بل ستكونُ كارثةً داخليةً بِقَدْرِ ما هي كارثة خارجية.

٣ يُكلَّفُ جيشُ الكوفةِ، وهو أقوى جيشي العراق، بهذه المهمةِ، يساعِدُهُ في ذلك مَدَدٌ يأتيه من

جيشِ البصرةِ، على أنْ يقتصِرَ هذا المددُ على ثُلُثِ الجيشِ البصري فقط، أما الثلثان الآخران فيبقيان في العراق لحمايةِ العِيالِ والذراري، وقَمْعِ أيَةِ بادرةِ انتقاضٍ وغَدْرٍ قد تبدرُ من أهلِ الذِّمَّةِ والمعاهدين.

٤ ــ أمّا التفاوتُ العدديُّ الذي سينشأ عن تطبيقِ هذه الخطَّةِ بين المسلمين والمشركين، فليس بشيءٍ، لأَنَّ المسلمين لم يربحوا معاركَهُم حتى الآن بالتفوّقِ العددِيِّ، بلِ ربحوها (بالنصر) أي بالمعنوياتِ المرتفِعَةِ عندهم، والمعنوِيَّاتِ المُنحطَّةِ عند أعدائهم.

لهذا كلِّهِ سارع عمرُ إلى قَبُوْلِ رأيِ عليٍّ واعتمادِهِ. ولكنْ بقِي عليه تسميةُ قائدٍ لهذا الجيشِ الذي سيتولّى المهمةَ، و يتوجَّهُ إلى نهاوندَ، فقال:

ــ فأشيروا عليَّ برجلٍ أوَلِّهِ ذلك الثغرَ غداً.

قالوا:

ـ أنتَ أفضلُ رأياً، وأحسنُ مقدِرَةً.

قال:

ـ اشيروا عليَّ به، واجعلوه عراقياً.

قالوا:

ـ يا أميرَ المؤمنين، أنتَ أعلمُ بأهلِ العراق، وجُندُهُ قد وفدوا عليك، ورأيتَهُم وكلَّمتُم.

قال:

ـ أمَا واللهِ لأولينّ أمرهم رجلاً ليكوننَّ لأَوَّلِ الأَسِنَّةِ إذا لقيها غداً!

قالوا:

ـ مَنْ يا أميرَ المؤمنين؟

فقال:

ـ النعمانُ بنُ المقرِّنِ المُزَنيُّ.

فقالوا:

ــ هُوَ لَهَا .

إعدادُ الجيش

وانصرف عمرُ بعد ذلك إلى إعدادِ الجيشِ، وتوزيعِ المهامِ فيه، وإصدارِ الأَوَامِرِ بما يُوَفِّرُ له أسبابَ النجاحِ في مهمتِهِ. فكتب إلى النعمانِ بنِ مُقَرِّنٍ، وكان يومئذٍ بالبصرة عائداً مع بقيةِ قُوَّادِ الكوفة من معركةِ تُسْتَر:

ــ بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلى النعمانِ بنِ مُقَرِّنٍ: سلامٌ عليك. فإنِّي أحمدُ إليكَ اللهَ الذي لا إله إلا هو. أمَّا بعدُ، فإنَّه بلغني أنَّ جموعاً من الأعاجمِ كثيرةً قد جمعوا لكم بمدينةِ نهاوندَ. فإذا أتاكَ كتابي هذا فَسِرْ بأمرِ اللهِ، وبِعَوْنِ الله، وبنصرِ الله بِمَنْ معك من

المسلمين. ولا تُوطِئَنَّهُم وَعْراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حَقَّهُم فتكفرهم، ولا تدخلنهم غيضَةً؛ فإنَّ رجلاً من المسلمين أحبُّ إليَّ من مائةِ ألفِ دينارٍ. والسلامُ عليك.

ثم كتب إلى أهلِ الكوفةِ أنْ يُوَافوا النعمانَ وعليهم حُذَيْفَةُ بنُ اليَمَانِ. وكتب لأبي موسى أنْ يسيرَ بأهلِ البصرة، كما أرسل إليه مَدَداً من أهلِ المدينةِ المنوَّرةِ فيهم ابنه عبدُ اللهِ بنُ عمرَ بنِ الخطّابِ.

ثم أتبع كتابَهُ الأولَ إلى النعمانِ بكتابٍ آخرَ يأمره فيه بأنْ يتخِذَ من مدينة «ماه»، وهي إحدى مُدُنِ الأَهوازِ، مركَزاً لتحشُّدِهِ. كما أوصاه فيه بأنْ يستعينَ من الناحيةِ التكتيكيةِ بآراءِ طليحةَ بنِ خُوَيْلِدٍ الأسديِّ، وعمروِ بنِ أبي سلمى العنزي،

وعمروِ بنِ معديكرب الزبيدي، وألاّ يُؤمِرّهم على قطعٍ كبيرةٍ من الجيشِ، لأنَّهم وإنْ كانوا على دراية جيدة بفنونِ الحرب، فإنَّهم كانوا من أهلِ الردة.

ولكي يُوفِّرَ عمرُ حمايةً كافيةً لعمليةِ التحشُّدِ، ثم حمايةً لخلفِيَّةِ الجيشِ عند انطلاقِهِ نحو هدفه، فقد كتب إلى أمراءِ حامياتِ الأهوازِ، وهم سلمى بنُ القينِ وحرملةُ بنُ مُرَيْطةَ وزربنُ كليبٍ والمقتربُ بنُ أسود، يأمرهم بالإقَامَةِ على حدودِ ما بين فارسَ والأهوازِ، ومُشَاغَلةِ القُوّاتِ الفارسيةِ في هذه المنطقةِ لأغراضٍ ثلاثةٍ: أنْ يمنعوا هذه القواتِ من التعرُّضِ لعمليةِ التحشُّدِ العربيِّ التي تجري على مقرُبَةٍ منها في مدينَةِ ماه، وأنْ يحولوا بينها وبين مُناوشَةِ مُؤَخِّرةِ الجيشِ العربي بعد استكمالِ تحشدِهِ ومسيرهِ نحو نهاوندَ، وأنْ يَقْطَعوا عليها طريقَ نهاوند، فبذلك

يحرمون الجيشَ الفارسيَّ المُتربِّصَ هناك من أمْدادٍ إضافيةٍ قوية.

المسير نحو نهاوند

لمّا استكملَ النعمانُ بنُ مقرّنٍ تحشُّدَهُ في «ماه»، بعث بطلائِعِهِ لِاسْتكْشافِ الطريقِ، وجمعِ الأخبارِ عن العدوِّ. وجعل على هذه الطلائعِ ثلاثةً من أشهرِ صناديدِ العرب، هم عمروُ بنُ أبي سلمى العنزي، وعمروُ بنُ معديكرب الزبيديُّ، وطليحةُ ابنُ خُوَيْلدٍ الأسديُّ.

فأمّا الأولُ فقد عاد في المساءِ دونَ أنْ يحمِلَ معه شيئاً من الأَخْبارِ، وأمّا الثاني فقد عاد في آخرِ الليلِ وأفاد بأَنه لم يقعْ على أثرٍ للقُوّاتِ المعادِيَةِ، وأَنّه أحجم عن التوغُّلِ اكثرَ من ذلك مخافةَ أنْ يُقْطَعَ عليه خطُّ الرجعةِ، وأمّا طليحةُ بنُ خويلدٍ فقد مضى حتى

وصل إلى نهاوندَ، وبينها وبين مركَزِ تحشُّدِ المسلمين بضعةٌ وعشرون فرسخاً (حوالي ١٢٠ كيلو متراً)، فاطلع على أخبارِ العدوِّ، ورجع فأخبر النعمانَ بأنَّ الطريقَ خالٍ من أيَّةِ كمائن للعدوِّ، وأنّه ليس بينه وبين نهاوند شيءٌ.

عند ئذٍ قام النعمانُ بتعبئَةِ جيشِهِ، فجعل على مُقدِّمتِهِ نعيمَ بنَ مقرِّنٍ، وعلى جناحِهِ الأيمنِ حُذَيْفةَ ابن اليمانِ، وعلى جناحِهِ الأيسرِ سُوَيدَ بنَ مقرِّنٍ، وعلى المجردةِ (الخيل) القعقاعَ بنَ عمروٍ التميميَّ، وعلى الساقةِ مُجاشعَ بنَ مسعودٍ. وأمر بالمسير في اتجاه نهاوند.

وعَلِمَ الفيرزانُ بمسيرِ النعمانِ إليه، فخرج من مدينةِ نهاوندَ، وضرب مُعسكَرَهُ في الأسبيذهان، وجعل وادي «واي خرد» خلفَهُ لِيحمِيَ مُؤخِّرتَهُ،

وحفر أمامَهُ خنادقَ واسعةً. ثم عَبّأَ جيشَهُ، فجعل على جناحِهِ الأيمنِ «الزردقَ»، وعلى جناحِهِ الأيسر «بهمنَ جاذويه»، وعلى الفُرْسانِ «أنوشقَ»، وترك لنفسِهِ القلبَ وإمرةَ الجيشِ العامّةَ. ثم راح ينتظرُ وصولَ النعمانِ إليه.

المعركة

ووصل المسلمون أخيراً. فلمّا رأى النعمانُ الفُرْسَ كبّر، وكبّر المسلمون معه، فتزلزلتِ الأعاجمُ. ثم أمر النعمانُ بحطّ الأثقالِ، وبضَرْبِ الفُسْطاطِ، فضُرِبَ وهو واقفٌ، وتعاون على بنائه أشرافُ أهلِ الكوفة.

وأنشبَ النعمانُ القِتالَ بعدما حطّ الأثقالَ، فَاقْتَتَلوا يومين، والحربُ بينهم في ذلك سجالٌ. ثم

تراجع الفرسُ إلى ما وراء خنادِقِهم، وتحصَّنُوا بها.

وتحوَّلَ القتالُ في الأيامِ الطويلةِ التي تلتْ إلى قتَالِ حِصَارٍ وخنادق، أي إنّ الفرسَ لا يخرجون من خنادِقِهم إلاّ متى شاؤوا، ليضربوا حيثُ شاؤوا، ثم يعودون إلى الاعتصامِ بخنادِقِهم قَبْلَ أنْ تدورَ الدائرةُ عليهم.

كانتْ هذه هي خطَّةَ الهرمزانِ في معركةِ «تُسْتَر» كما رأينا من قبل. وكان المُقَدَّرُ لها أنْ تنجحَ لولا تسلُّلُ المسلمين إلى داخلِ المدينةِ، وفتحهم أبوابها. وها هو ذا الفيرزان يعتمِدُهَا ههنا وقد ضَمِنَ نجاحَها، لأنَّ المسلمين اذا كانوا أحبطوها في تستَر بتسلِلِهم إلى المدينةِ من مَخْرجِ الماءِ، فليس ههنا مخرجُ ماءٍ آخرُ يتسلَّلُون منه، فوادي (واي خرد) العميق يحمي الفُرْسَ من خلفِهِم،

والخنادقُ الحصينةُ تحميهم من أمامِهم. وليس أمام العربِ إلاّ أنْ ينتظروا خروجَ الفُرْسِ لكي يقاتلوهم، ولكنْ في الزمانِ والمكانِ اللذين يحددهما الفرسُ لا العربُ.

لقد جعلها الفيرزانُ الماكِرُ حربَ مُطَاولةٍ واستنزافٍ. وكان يعلم جيداً أنَّ الزمنَ يعملُ في مصلحتِهِ، ففي كلِّ يومٍ يمرُّ تفترُ حماسةُ العربِ قليلاً، وترتفِعُ معنوياتُ الفرسِ قليلاً. والنتيجةُ النهائيةُ هي أنْ يسأمَ العربُ هذه الحربَ غيرَ المُجْدِيَةِ، فيعودوا من حيث أَتَوا، فيكون الفيرزانُ قد ربح الجولةَ الأولى ضدهم. صحيح أنَّ نتيجةً من هذا النوع لن تكون نَصْراً بالمعنى الصحيحِ، ولكنَّ عَدَمَ الانكسار هو ربحٌ من نوعٍ ما.

وأدركَ النعمانُ من جهتِهِ خطورةَ الموقفِ على

العرب. ورأى أنه لا بُدَّ من فعلِ شيء يُحْبِط خُطَط الفيرزان، ويحول بينه وبين الوصولِ إلى غايتِهِ، فدعا إلى مَجْلِسِ حرب لمناقشةِ الوضعِ العسكريِّ العامِّ، وأمر أنْ يكونَ في المجلسِ عمروُ بنُ معدِيكرب الزبيديُّ، وطليحةُ بنُ خويلدٍ الأسديُّ تنفيذاً لأوامرِ عمرَ بنِ الخطَّابِ التي ذكرناها سابقاً.

وحين التأم المجلسُ قال النعمانُ:

قد تَرَوْنَ المشركين واعتصامَهُم بالحُصُوْنِ من الخنادقِ والمدائنِ، وأنَّهم لا يخرجون إلاّ إذا شاؤوا، ولا يقدرُ المسلمون على إنغاضِهِم (تحريكهم) وانبعاثهم قَبْلَ مشيئتِهِم. وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق بالذي هم فيه وعليه من الخيارِ عليهم في الخروج (أي خيار العدو عليهم في المكان والزمان اللذين يريدهما). فما الرأْيُ الذي به

نحمشُهُم (نثيرهم) ونستخرِجُهُم إلى المُنابَذَةِ (القتال) وتركِ التطويل؟ فتكلَّم عمروُ بنُ ثُبَّى، وكان أكبرَ النَّاسِ يومئذٍ سناً، فقال:

ــ أيُّها الأميرُ إنَّ تحصُّنَهم إذا كان مُضْجراً لنا، فإنَّه شديدٌ عليهم، ضارٌ بهم. وإذا طال الحصارُ عليهم وقلَّتْ أقواتُهم، لم يكنْ لهم بُدٌّ من إحدى اثنتين: فإمّا الخروجُ، وعند ئذٍ ننابذُهم، وإمّا الموتُ جُوْعاً وراءَ خنادِقِهِم. فالرأيُ عندي أنْ تدعَهم ولا تُحرِجَهم، وطاوِلْهم، وقاتِلْ من يخرجُ إليكَ منهم.

وأجمع أركانُ الحربِ على رفضِ هذا الرأي، فتكلم عمروُ بنُ معدِ يكرب، فقال:

ــ أيها الأميرُ، أرى أنْ نقومَ بهجومٍ عامٍ عليهم، فنقتحم خنادِقَهُم، ونتسوَّر أسوارَهم وتحصيناتِهِم..

فأجمع أركانُ الحربِ على رفضِ هذا الرأي

أيضاً، وقالوا:

ـ إنّ تحصيناتِهم أمنعُ من أنْ تُقْتحَمَ. ولا نستطيعُ أنْ نناطحَ الجُدْرانَ بالرِّجالِ.

وعندئذٍ تكلم طليحةُ بنُ خويلدٍ الأسديُّ، فقال:

ـ أيها الأميرُ، لقد قالا ولم يصيبا. وأمّا أنا فأرى أنْ تبعثَ فرقةً من الفُرْسانِ، فتحدق بهم، ثم ترميهم بِالنَّشّابِ لِيُنْشِبُوا القتالَ ويحمشوهم. فإذا استحمشوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروجَ، تراجع فُرْسانُنا إلينا مُتظاهِرِينَ بالهزيمةِ على طريقةِ الاستطرادِ. وبما أنّنا لم نستعملْ أسْلوبَ الاستطرادِ معهم في كلِّ حروبِنا السابقةِ، فإني لا أشكُّ في أنّهم سينخدِعُونَ باستطرادِ فُرْسانِنا، وسيظنون أنها هزيمةٌ حقيقيةٌ، وعندئذٍ سيخرجون من خنادِقِهم، فإذا

خرجوا منها ارتدَّ فُرْسانُنا عليهم ونحن معهم، وأَجْبَرْناهم على الاشتباكِ حتى يقضي َالله ُفينا وفيهم ما أَحَبَّ.

استحسن النعمانُ بنُ مقرّن ٍوأركانُ حربِهِ فكرةَ طليحةَ، وعَهِدَ إلى القعقاعِ بنِ عمروٍ التميميِّ قائدِ الفُرْسانِ أنْ يتولّى مع فرقتِهِ مهمةَ استدراجِ العدوِّ إلى خارجِ حُصُونِهِ وخنادقِهِ.

جولة الابادة

أشرقتْ شمسُ اليوم التالي، وكان يوم جمعة، والجيشُ العربيُّ واقفٌ في تعبئتِهِ الكاملةِ. وأصدر النعمانُ أمرَهُ إلى القعقاعِ بنِ عمروٍ قائدِ الفرسانِ بانْشَابِ القتالِ حسبَ الخطَّةِ المرسومة.

وبينما مضى القعقاعُ مع فرسانِهِ للقيامِ بمهمتِهِ،

انصرف النعمانُ إلى إصدارِ أوامرِهِ إلى سائرِ قطعاتِ الجيش بما يجب عليهم فعله أثناءَ القتالِ.

وكان أولَ شيءٍ فعله أنّه عيَّنَ خلفاءَهُ في حالِ إصابتِهِ، فقال:

ـ إنْ أصبْتُ فعليكم حُذيفةُ بنُ اليمانِ، وإنْ أصيبَ حذيفةُ فعليكم جريرُ بنُ عبدِ اللهِ، وإن أصيب جريرٌ فعليكم قيسُ بنُ مكشوح المرادي، وإن أصيب قيسٌ فعليكم المغيرةُ بنُ شعبةَ.

ثم أمر الجنودَ بأنْ يلزموا مواقِفَهم، وألاّ يبدؤوا القتالَ إلاّ بعد أن يأذن لهم.

وكان القعقاعُ قد وصل إلى مشارِفِ خنادقِ العدوِّ، فأمر فرسانَهُ بالرمي، فراحوا يرشُقون الفرسَ بوابلٍ من سهامِهِم عبر الخنادقِ والتحصيناتِ. وعندئذٍ أمر الفيرزانُ فرسانَهُ بالخروجِ والتصدي

للقعقاعِ وفرقتِهِ، فقامتْ فِرقةٌ بكنْسِ حسكِ الحديد الذي كان منثوراً حولَ الخنادقِ تحت حمايةِ رميٍ كثيفٍ من عناصرها الصديقةِ. فلمّا تمَّ تنظيفُ الأرضِ من الحسك، وفُتِحَ ممرٌّ كان لمرورِ فرسانِ الفرسِ، انطلق هؤلاء في هجومٍ صاعقٍ على القعقاعِ وفرقتِهِ.

وكان هذا هو ما يُريدُهُ القعقاعُ، فأمر جنودَهُ بتراجعٍ بطيءٍ لا ينبه العدو على حقيقةِ ما بيَّتَ له. واغتبط الفرسُ بما رأوا من تراجعِ العرب، وظنوا أنهم ينهزمون حقاً، فتحمَّسُوا وراحوا يُهاجِمون بشدةٍ.

وثبت القعقاعُ ساعةً، ثم أمر بانسحابٍ آخرَ، فاستبشر الفرسُ خيراً، وظنوا أنّه النصرُ لاحتْ راياتُهُ لهم، فتشجعوا وأقدموا.

وهكذا مضى القعقاعُ يثبتُ قليلاً ثم ينكصُ،

حتى لم يشك الفرسُ في أنها الهزيمةُ قد حاقتْ بأعدائِهم العرب لأول مرة.

وانزلق الفيرزانُ بكلِّ سذاجةٍ وبلاهةٍ إلى الفخِّ الذي نُصِبَ له، فأمر قطعاتِهِ جميعاً بالخروج من الخنادق، وشن هجوم عام على فرسانِ العرب لسحْقِهِم، فخرج بقيةُ الفرسانِ أولاً، ثم تبعهم المشاةُ ،قد اقترنوا بالسلاسلِ زيادة في التصميمِ على الثبات وعَدَمِ الفـرارِ: كلُّ سبعةٍ منهم في سلسلةٍ واحدة. ولم يبقَ على الحصونِ إلاّ حُرَّاسُ الأبواب.

وظلَّ القعقاعُ يتراجَعُ، والفرسُ يتقدمون، حتى انقطعوا عن خنادِقِهم، ووصلوا إلى الجيشِ العربيِّ الذي كان في انتظارِهم.

وعلى الرغم من أنَّ الفرسَ أصبحوا الآن وجهاً لوجهٍ مع الجيشِ العربي، حتى إنّ سهامَهُم بدأتْ تقعُ

في صفوفِهِ وتحدثُ بعضَ الخسائرِ، فإنّ النعمانَ لم يأذن بالرد على العدو، بل اكتفى بأنْ أمر جنودَهُ بأنْ يستتروا من رمي العدوِّ بالتروسِ، تاركاً القعقاعَ يتحمَّلُ وحدَهُ كلَّ ضغطِ الهجوم الفارسيِّ.

ومكث النعمانُ ساعةً لا يأذنُ بالقتالِ، حتى فَشَتِ الجراحاتُ في المسلمين مما كان الفرسُ يرمونه من سهامٍ، وحتى شكا بعضُ الجنودِ ذلك إلى بعضٍ، ثم قالوا للنعمان:

ــ ايها الأميرُ، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى الى ما لقِي الجنود؟ فماذا تنتظر بهم؟ ائذن لنا في قتالهم.

فقال النعمانُ:

ــ رويداً.. رويداً.

فقال المغيرةُ بنُ شعبةَ:

ــ لم أر كاليوم فشلاً (ضعفاً)! لو أنّ هذا الأمرَ

إليّ عَلِمْتُ ماذا أصنعُ.

فقال له النعمانُ، وكان رجلاً ليناً:

ــ رويداً تَرَ أمرَكَ. وقد كنْتَ تَلِي الأمرَ فتُحْسِنُ. فلا يَخْذُلنا اللهُ ولا إيّاكَ! ونحن نرجو في المكْثِ مثلَ الذي ترجو في الحثِّ.

قال المغيرةُ وقد نفد صبرُهُ:

ــ فماذا يمنعُكَ من أنْ تأذنَ للناسِ في القتال؟

فقال النعمانُ في هدوءٍ!

ــ إنّما انتظرُ إكمالَ ساعاتٍ كانتْ أحبَّ إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنْ يلقىٰ فيها العدوَّ، وذلك عند الزوالِ، وتفيؤ الأفياء، ومهب الرياح.

وحانَتِ الساعةُ التي كان ينتظرها النعمانُ، فركب فرسَه، ثم سار يستعرِضُ قطعاتِ الجيش، ويقفُ على كلّ قطعةٍ ويقولُ:

ـ قد علمتم ما أعزَّكُمُ اللهُ به من هذا الدينِ، وما وعدكم من الظُّهورِ. وقد أنجز لكم حتى الآن أولَ وعدِهِ، وهو مُنجزٌ لكم آخرَهُ. واذا كان المشركون يقاتلون دفاعاً عن أموالِهم، فإنكم تقاتلون دفاعاً عن دينكم. فلا يكونُنَّ على دنياهم أشدَّ حماسةً منكم على دينكم. وَاتَّقى اللهَ عبدٌ صدقَ اللهَ وأبلى فأَحْسَنَ البلاءَ. فإنكم بين خيرين مُنتظِرينَ إحدى الحُسْنيين: فإمّا الشهادةُ والجنةُ، وإمّا فتحٌ قريبٌ يعزّ اللهُ به الاسلامَ والمسلمين.

فإذا قضيتُ أمري فاستعدوا، فإني مكبّرٌ ثلاثاً. فإذا كبَّرْتُ التكبيرةَ الأولى، فليتهيّأ مَنْ لم يكنْ قد تهيَّأ، فإذا كبَّرْتُ الثانيةَ، فَلْيَشد كلٌّ منكم عليه سلاحَهُ، ولْيتأهَبْ للنهوضِ، فإذا كبَّرْتُ الثالثةَ، فإني حاملٌ إنْ شاء اللهُ، فاحملوا معاً.

اللهم أعزّ دينَكَ، وانصرْ عبادَكَ، واجعلِ النعمانَ أولَ شهيدٍ اليوم على اعزازِ دينك ونصرِ عبادك!

فلمّا فرغ النعمانُ من ذلك رجع إلى موقِفِهِ في القلبِ، فكبر الأولى والثانية والثالثة، والجنودُ سامِعُونَ مُطيعون مُسْتعِدُّون للقتالِ.

وهجم النعمانُ بالقلبِ، فتبعَتْهُ الأجنحةُ بأسلحتِها كافَّةً. وراحتْ رايةُ النعمانِ تنقضُّ على العدوِّ انقضاضَ العُقابِ. فاقتتلوا بالسيوف اقتتالاً شديداً لم يسمع السامعون بوقعة يومٍ قطُّ كانتْ أشدَّ منها. وأكثروا القَتْلَ في المشركين حتى امتلأَتْ ساحةُ المعركةِ بجُثَثِهم ودمائِهِمُ اللزِجَةِ. وصار جُنودُ المسلمين وخيلُهم تزلقُ في الدَّمِ. فوقعتْ بعضُ الخسائرِ في المسلمين بسبب هذا الزلق.

بعد ثماني ساعاتٍ مُتواصِلةٍ من هذا القتالِ المرير الذي لم يكنْ يُسمعُ فيه غيرُ وَقْعِ الحديدِ على الحديدِ، وغير صهيل الخيل، وصياح القتلى وهم يسقُطون، بدأتْ صفوفُ الفرسِ تضطرِبُ، وبدأتْ قطعاتهم تتراجَعُ في فوضى.

صاح النعمانُ وقد لاحت له بوادِرُ النصرِ:

ــ قَدِّموا اللواء.

فتقدَّم حاملُ اللواءِ والمسلمون من خلفِهِ قد عقدوا العَزْمَ على النصرِ أو الشهادةِ.

وتزعزتْ صفوفُ الفرسِ، وبدؤوا بالهزيمةِ، وركب المسلمون أكتافَهُم، ووضعوا السيوفَ في أعناقِهِم، فلم يكنْ يُفْلِتُ منهم أحدٌ، حتى قتلوا منهم بشراً كثيراً. وقد زاد في خسائرِ الفرسِ هذه السلاسلُ التي اقترنوا بها، إذ كان المُقاتِلُ منهم إذا

سقط، سقط معه ستةٌ بعضُهم فوقَ بعضٍ، فيُقْتلون جميعاً.

وفجأةً زلق حصانُ النعمانِ في الدَّمِ، فوقع عنه إلى الأرضِ. وفي اللحظة التي حاول فيها أنْ ينهضَ جاءتهُ نشَّابةٌ، فأصابتْ خاصرتَهُ، فقتلته، فأسرع أخوه نعيم ــ وكان إلى جانبه ــ فسجَّاهُ بثوبٍ، ثم أخذ الرايةَ، ومضى بها إلى حُذيفةَ بنِ اليمانِ، فدفعها إليه، وأخبره بإصابةِ النعمانِ.

بعد أنْ صار حُذيفةُ قائداً عامّاً أمر نعيمَ بنَ مُقرِّنٍ بأنْ يأخذَ مكانَهُ، ومضى هو بالرايةِ إلى المكانِ الذي كان فيه النعمانُ فأقام الرايةَ فيه، وأصدر أمرَهُ بالاستمرارِ في الهجوم، وكتمانِ خبرِ مصرعِ النعمانِ، لكيلا يحطَّ الخبرُ المُحْزِنُ من معنوياتِهِم.

وحلَّ الظلامُ والقِتالُ لا يزالُ مُحْتدِماً، والفُرْسُ

يتراجعون و يتراجعون حتى وصلوا إلى خنادِقِهِمُ التي انطلقوا منها صَدْرَ النهارِ.

و بسببِ شدَّةِ الظَّلامِ، وعَدَمِ انتظامِ الفرسِ في تراجُعِهِم، فإنهم لم يهتدوا إلى الطريقِ الذي نظَّفُوه من حَسَكِ الحديدِ قبل خروجهم من الخنادقِ صباحاً، فوطئوا الحسكَ الذي راح يعقرهم و يعقر خيلَهُم، فتحولوا إلى جهةٍ أخرى، ومضوا في الظلامِ لا يلوون على شيءٍ. وكان من سوءِ حظِّهِم أنَّهم مضوا في الجهةِ المُؤدِّيَةِ إلى وادي (واي خرد) وهم لا يعلمون ولا يُبْصرون.

ولمّا كان الفزعُ قد استولى عليهم وأعمى أبصارهم، ولوا الأدبار، وانطلقوا في غياهبِ الليلِ، ولا هَمَّ لهم إلاّ النجاةُ، فتلقَّفَهُمُ الوادي السحيقُ، فراحوا يتساقطون فيه بالألوفِ، وكأنهم جرذانٌ

مذعورةٌ، أو كأنهم قطعانٌ هائلة من الثيرانِ الوحشيةِ تتدافعُ مذعورةً لِتسقطَ إلى قرارةِ الوادي حيث تُدَقُّ أعناقُها.

ولمّا تمَّتِ الهزيمةُ، وانجلى غبارُ المعركةِ، كان (واي خرد) قد أصبح أكبرَ قبرٍ في العالم، لأنَّ مائةَ ألفٍ من الفرسِ استقروا في بطنِهِ صرعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية.

ودخل المسلمون بعد هزيمة المشركين مدينةَ نهاوندَ، واحتووا ما فيها وما حولها.

نهاية الفيرزان

نعودُ الآنَ إلى الوراءِ قليلاً لنرى ماذا صنع الفيرزانُ قبيل نزولِ الهزيمةِ التامة بجيشِهِ.

حين أيقن هذا القائدُ الخائبُ أنَّ هزيمةَ جندِهِ

باتتْ مُحقَّقةً، طلب النجاةَ لنفسِهِ، فتظاهر بالموت، واندسَّ بين جُثثِ القتلى، وراح يتحينُ الفُرَصَ للهربِ دون أنْ يشعرَ به أحدٌ، فقضى ليلتَهُ تلك بين الجثثِ حتى صباحِ اليوم التالي. ولكنّ سوءَ خطّهِ لاحقَهُ حتى النهاية. إذ ما كاد يحسُّ أنّ الطلبَ قد خفَّ، وأنَّ الفرصةَ المناسبةَ قد سنحتْ، حتى تسلل من بين الجثثِ، وراح يبحثُ عن حِصَانٍ شاردٍ يركبُهُ، فلمّا وقع على بُغيتِهِ، اعتلى ظهرَ الحصانِ، وراح يسابقُ به الريحَ.

ويشاءُ حظُّهُ التعِسُ أنْ يكونَ نعيمُ بنُ مقرِّنٍ قريباً من ذلك المكانِ، فلمّا رآه منطلقاً على حصانِهِ عرفه من ثيابه، فجدَّ في أثره مع مفرزةٍ من جنودِهِ، وقدَّم القعقاعَ بنَ عمروٍ أمامَهُ.

وبدأَتْ مُطاردةٌ رهيبةٌ تذكرنا بما تعرِضُهُ علينا

السينما من مُطاردات ٍ رُعاةِ البقر في الغرب الأمريكي.

كان الفيرزانُ في **الأمام** وقد سلك طريقَ همذان، وكان لا يفتأ يحثُّ حصانَهُ على الإسراعِ بكلِّ وسيلةٍ، وكان القعقاعُ في الخلْفِ يسابقُ الريحَ بحصانِهِ العربي الأصيل.

وراحَتِ المسافةُ بين الفارسين تَقْصُرُ شيئاً فشيئاً، حتى استطاع القعقاعُ في المراحلِ الأخيرةِ من المطاردةِ أنْ يقتربَ من الفيرزان بحيث كان يراه أمامَهُ على بُعْدِ بضعِ مئات ٍمن الأمتار.

وصل الطريقُ الآن بالمُتطارِدِين إلى أحدِ الجبالِ، وغدا ضيقاً لا يكادُ يتَّسِعُ لأكثرَ من مارٍ واحدٍ أو اثنين، وراح يتلوى يَمنةً و يَسرة ً شأن كلِّ الطرقِ الجبلية.

المطاردة لا تزالُ مُستمِرّةً، والمسافةُ بين الفيرزان والقعقاعِ لم تَعُدْ تزيدُ على مائتي متر فقط.

وفجأة، وبعد أنِ انعطفَ الفيرزانُ في إحدى التواءاتِ الطريقِ، وهي المدعوة بثينة همذان، وجد الطريقَ أمامه مسدوداً.

كانتْ هناك جماعةٌ من الفلاحين تسوقُ بغالاً وحميراً لها مُحمّلةً بالعسل. ولم يكنِ الطريقُ لضيقِهِ يسمحُ بمرورِ أحدٍ. فماذا يفعل الفيرزان؟

التفت إلى الوراءِ فإذا القعقاعُ جاد في أثره والسيفُ مُصْلتٌ في يده.. ونظر أمامَهُ فإذا البغالُ والحميرُ تسد الطريقَ ولا تسمحُ بالمرور..

وحار الفيرزان فيما يفعل.. كان الوقتُ يمرُّ

بسرعةٍ.. ولم يبقَ إلاّ لحظات ٌيكون القعقاعُ بعدها قد أدركه.. وعندئذٍ..!

ونزل الفيرزان عن فرسِهِ، وراح يتسلقُ الجبلَ في خِفَّةِ الهر، وقد منحه الذعرُ القاتِلُ قوّةً عجيبةً.

ووصل القعقاعُ بعد ثوانٍ قليلةٍ، فتخلى عن حصانِهِ، ومضى يتسلقُ الجبلَ في أثر الفيرزان الذي كان لا ينفك يتلفَّتُ وراءهُ، و يرمقُ مُطارِدَهُ بعينين جاحظتين من أثر الرعبِ الذي استبدَّ به.

ولم تمضِ إلا دقائقُ على هذه المطاردةِ الجبليةِ، حتى بدأ التعب يظهر على الفيرزان، فتباطأتْ حركتُهُ، وراح صدرُهُ يعلو ويهبطُ في حركةٍ تنفسيةٍ شاقة.

وفي هذه اللحظاتِ كان القعقاعُ قد صار أسفله

تماماً، فقبض على رجله، وسحبه منها، ورفع سيفه.. و.. بضربةٍ واحدةٍ فصل رأسَهُ عن جُثَّتِهِ، وأراحه إلى الأبد من هذا الهربِ الطويل.

نهاية الملك يزدجرد

على الرغم من أنَّ نهايةَ الملكِ يزدجردَ لم تكن في إحدى وقائع معركةِ نهاوند التي هي موضوع كتابنا هذا، وعلى الرغم من أنها لم تكنْ إحدى النتائجِ المباشرةِ لهذه المعركةِ، وأنها لم تحدث إلا بعد انقضاءِ عَشْرِ سنواتٍ، فإننا سنذكرها ههنا لِعِدَّةِ أسبابٍ:

الأول: أنَّنا وعدنا القارىء بذلك في فصلٍ سابق.

الثاني: أنَّ هذه النهايةَ إذا لم تكنِ النتيجةَ

المباشرةَ لمعركةِ نهاوند، فقد كانت النتيجةَ التي توخاها العربُ من سياسةِ الانسياحِ في البلادِ الفارسية.

الثالث: أنّ نهايةَ آخرِ ملوكِ الدولةِ الساسانية كانتِ الإعلانَ الرسميَّ بزوالِ إمبراطوريةٍ كانتْ إحدى أعظمِ امبراطوريتين في العالم لذلك العصر.

تركنا يزدجردَ في فصلٍ سابق وقد وصل إلى خُراسانَ. فماذا تعني هذه الكلمةُ؟

«خُراسانُ» إقليمٌ واسعٌ يقعُ في أقصى الشّمالِ الشرقي للأراضي الفارسية، ويشتركُ في الحدودِ مع مملكتي التركِ والصُغْدِ، ويضم مُدُناً مهمةً كثيرة خرّجتْ فيما بعدُ مجموعةً ضخمةً من مشاهيرِ العلماء. من هذه المدن: هراة وسَرَخْس ونيسابور وبَلْخ ومرو

الشاهجان ومرو الروذ. وأَهَمُّ هذه المدنِ هي مرو الشاهجان التي يمكنُ عَدُّها عاصمةً للإقليمِ. وإذا أُطلِقَتْ كلمةُ «مرو» انصرفَتْ إليها.

وصل يزدجردُ إذن في نهايةِ هر بهِ من المدائنِ إلى مرو الشاهجان. وعلى بُعْدِ فَرْسَخَينِ من المدينةِ بنى لنفسِهِ منزلاً في أحدِ البساتين، ومن هذا المنزلِ راح يكتبُ إلى الوِلاياتِ التي كانتْ لا تزالُ مُواليةً له يُحرِّضُها على مُحاربةِ العربِ لإخراجِهِم من البلادِ.

ولكنّ هذه الوِلاياتِ راحتْ تتساقَطُ في أيدي العرب واحدةً تلو الأخرى إثر معركةِ نهاوندَ. وها هوذا الأحنفُ بنُ قيسٍ يدخلُ حدودَ خُراسانَ و يفتحُ مدينةَ هراة عنوة، ثم يُوجِّهُ إلى نيسابورَ وسرخس مَنْ يفتحهما، و يسيرُ بنفسِهِ إلى مرو الشاهجان آخر معاقل يزدجرد.

وتبدأ ههنا مطاردةٌ أخرى لا تكادُ تختلِفُ عن مُطاردةِ الفيرزان: فالملك الذي أَحَسَّ بدنو الخطرِ راح يتنقَّلُ من مدينةِ إلى أخرى فاراً أمامَ الفاتحِ العربي الذي كان يتقدَّمُ خلفه في ثباتٍ وتصميم.

هكذا فر يزدجردُ من مرو الشاهجان إلى مرو الروذ، ولكنّ الأحنفَ لم يمهلْهُ طويلاً، إذ ما كاد يفتحُ مرو الشاهجان حتى لحق به إلى مرو الروذ، فتركها هذا إلى بلخ، آخر مُدُنِ خُراسان، والواقعةِ على حدودِ بلادِ الترك.

وكما سُدَّ الطريقُ أمامَ الفيرزان في هربِهِ، فكذلك وجد يزدجردُ نفسَهُ في نهايةِ طريقٍ مسدودٍ، فليس بَعْدَ بلخ بلدٌ فارسيٌّ يستطيعُ الهربَ إليه، وعليه ههنا أنْ يخوضَ أولَ معركةٍ له مع العربِ، وربما تكون الأخيرة، ولكنَّه مضطرٌ. فحتى لو أراد اللجوءَ

إلى جيرانِهِ الأتراكِ، فيحسن أنْ يلجأَ إليهم هارباً من معركةٍ خاضها بشرفٍ، لا هارباً من شبحٍ خلقه له جبنُهُ ونذالتُهُ.

ولحق به الأحنفُ إلى بلخ. وعلى ضفافِ نهرها الفاصِلِ بين البلادِ الفارسيةِ ومملكة التركِ، وقعتْ معركةٌ سريعةٌ هُزِمَ فيها يزدجردُ شرَّ هزيمةٍ، وعَبَرَ النهرَ ليحلَّ لاجئاً على ملك الترك خاقان.

وورد إلى الأحنفِ كتابٌ من عمرَ يأمره بالتوقفِ عند النهر وعدم عبوره. ولكنّ يزدجرد لم يتعظ بما أصابه حتى الآن، بل راح يُحرضُ خاقانَ ملكَ الترك، وغوزك ملك الصُّغدِ على حرب المسلمين.

واستطاع بمساعدةِ التركِ أنْ يعودَ إلى خُراسانَ

ويحتل مدينة بلخ، ولكنَّ ذلك لم يَدُمْ طويلاً، فسرعان ما هبَّ الأحنفُ إليه، وطرده هو وحلفاؤه مرة أخرى إلى ما وراءَ النهر حيثُ أقام لاجئاً مُدَّةَ خلافةِ عمرَ كُلِّها.

وفي خلافةِ عثمانَ ثار أهلُ خُراسانَ، فانتهزها يزدجردُ فُرْصةً، وعبر النهرَ، وأتى مدينة مرو فاحتلها. ثم اختلف مع أهلِ مرو، فثاروا به، فقتلوا مَنْ كان معه من الأعوان، ففر وحيداً، والتجأ إلى طاحُونَةٍ في ظاهِرِ المدينةِ، وليس معه سوى تاجه وخاتمه وسواريه. وكان جائعاً، فطلب من صاحِبِ الطاحونة شيئاً يأكله. وحين أراد مُكافأةَ الطحانِ على إيوائِهِ وإطعامِهِ لم يجدْ معه درهما واحداً، فخلع خاتمه وقدمه إليه. ولكنَّ الطحانَ كان يطمعُ في أكثرَ من ذلك، فتركه حتى إذا استغرق في نومِهِ بعد

الطعامِ، جاء بحجرٍ ضخمٍ، فأهوى به على رأسِهِ، فقتلَهُ وسلبه تاجه وسواريه، ثم ألقى بجثتِهِ في النهرِ.

هكذا مات آخرُ ملوكِ الساسانيين: شريداً خائفاً جائعاً لا يملك ثمن طعامه. وبموتِهِ أفلتْ شمسُ إمبراطوريةٍ كانتْ مع بيزنطة أكبر إمبراطوريات العالم في ذلك التاريخ.

الخاتمة

نظرة تحليلية

وبَعْدُ،

فما الذي جعلَ معركةَ نهاوندَ تحتلُ منزلةً خاصَّةً بحيثُ خصصناها بهذا الكتاب؟

ألم تكنْ معركةً كسائرِ المعارك؟

ألم تكنْ كغيرِها حَلْقةً في هذه السلسلةِ الطويلةِ من معارِكِ الحربِ الفارسية العربية التي بلغَتِ العَشْراتِ خلال تسْعَ عشْرةَ سنةً من الزمن؟

الواقعُ أنَّ معركةَ نهاوند تتميزُ، كأختها معركة القادسية، بأشياء كثيرة تجعلُها جديرةً بالوقوفِ عندها، والاهتمام بها، واعتبارها واحدةً من أهم المعارك الحاسمة في التاريخ.

وسنحاولُ فيما يلي تسليطَ بعضِ الضوءِ عليها، للكشفِ عن نواحي عظمتِها، وعن النتائجِ الخطيرةِ التي أدَّتْ إليها.

١ ــ لقد حشد الفرسُ في هذه المعركةِ (١٥٠) ألف جندي. وهو أكبرُ جيشٍ جيَّشَتْهُ الأمةُ الفارسيةُ في كلِّ تاريخها. بل إنَّه يعد من الجيوشِ الضخمةِ حتى بالمقاييس العصرية. وهذا وحدهُ سببٌ كافٍ لاعتبار معركةِ نهاوندَ واحدةً من كبريات المعارك في التاريخ العسكري العام.

٢ ــ لا تذكر المصادرُ العربيةُ ولا غيرها شيئاً عن عَدَدِ الجيشِ العربي في هذه المعركةِ. ومع ذلك نستطيعُ أنْ نجزمَ مُطمئنين بأنّه لم يكنْ يتجاوزُ أربعين ألفاً بحالٍ من الأحوالِ. ذلك أننا على معرفةٍ يقينيةٍ بالفئاتِ التي اشتركتْ في تكوينه. وهذه الفئات هي على وجه التحديد:

أ ــ جند الكوفة.

ب ــ جند البصرة.

ج ــ المدد القادم من المدينة المنورة.

فأمّا الكوفةُ ــ وهي يومئذٍ أكبرُ قاعدةٍ عسكريةٍ للعرب ــ فلم يكنْ بمقدورها أنْ تُقدِّمَ أكثرَ من خمسةٍ وعشرين ألفَ مُقاتلٍ. وهذه الدعوى لا تقومُ على أساس تقدير اعتباطي، بل تقومُ على أساسٍ قوي من الحسابِ الدقيق. فنحن نعلم أنَّ جندَ الكوفةِ هم

البقيةُ الباقيةُ من جيشِ القادسيةِ. فإذا علمنا أنَّ جيشَ العربِ في معركةِ القادسية لم يَزِدْ على ستةٍ وثلاثين ألفِ مقاتلٍ، واذا علمنا أنّه خسر في تلك المعركةِ وحدها (١٠) آلاف، وأنه خاض بعد ذلك معارِكَ (برس) و (بابل) و (مظلم ساباط) و (بهرسير) و (المدائن) و (تكريت) و (جلولاء) و (قرقيسياء) و (ما سبذان)، فإنّ أقربَ تقديرٍ له أنْ يكونَ قد هبط إلى (٢٠) ألفاً.

ولا ننسى في الوقتِ نفسِهِ أنّ هذه القاعدةَ العسكريةَ استقبلتْ فيما بَعْدُ مُتطوّعين جداً تحتَ اسمِ «الروادف»، وأنّ عدداً لا بأسَ به من غلمان المجاهدين الأولين قد بلغ سنَّ الجندِيَّةِ وانخرط فيها، ولكنْ من الواجبِ أيضاً ألاّ ننسى أنَّ كثيراً من المجاهدين الكهول قد بلغوا سنَّ التقاعدِ، وأنّ المدنَ

العراقيةَ المُفْتتَحَةَ قد اقتطعت جزءاً لا بأسَ به من الجيشِ الكوفيِّ ليكوِّنَ فيها مسالحَ وحاميات ٍ.

وعلى أساس ٍمن هذا التقديرِ الصحيح، لا نظن أنَّ البصرةَ ـــ وهي القاعدةُ العسكريةُ الثانيةُ بعد الكوفة ـــ كانت تستطيعُ أنْ تقدِّمَ اكثر من خمسةَ عشرَ ألفَ جنديٍّ. بل ربما انخفض هذا العددُ إلى عشرةِ آلاف ٍ إذا تذكَّرْنا أنَّ كثيراً من القواتِ البصرية ـــ وهي حامياتُ ميسان ودستميسان ونهر تيرى ومناذر وسوق الأهواز ـــ لم تَشْترِكْ في المعركةِ، لأنها كُلِّفَتْ بِمُشَاغَلَةِ القُوَّاتِ المعادِيَةِ في ولايةِ فارسَ، ومنعِها من الانضمام إلى القوات الفارسية في نهاوند.

وأمّا المدينةُ المنورةُ فلم تكنْ في أي يومٍ من الأيام ـــ حتى في أيامِ الرسولِ وتركُّزِ المسلمين فيها ـــ

بقادِرَةٍ على تجييش جيشٍ يزيدُ على خمسة آلاف مقاتل.

نريد من كلِّ هذا أنْ نصلَ إلى نتيجةٍ مهمةٍ واحدةٍ، وهي أنَّ العربَ خاضوا في نهاوند مَعركةً غيرَ متكافئةٍ عددياً، تبلغُ نسبةُ التفاوتِ فيها واحداً إلى ثلاثة أو أربعة فإذا كانوا قد انتصروا فيها ــ وهذا ما حققوه فعلاً ــ فإنهم يكونون قد سَطَّروا أروعَ صفحةٍ لهم في سجل تاريخِهِمُ العسكري المجيد.

٣ ــ كان حجمُ الخسائرِ الفارسيةِ في هذه المعركةِ من الضخامَةِ بحيثُ غَدَتِ المقاطعاتُ الفارسيةُ بعدها شبه خاليةٍ من أي دفاعٍ جدِّيٍ في وجه المدِّ العربيِّ الزاحفِ، فراحتْ هذه المقاطعاتُ تتساقطُ في أيدي العربِ واحدةً تلو الأخرى، ففتحت بلاد الجبل أولاً، ثم تلتها فارس، فكرمان،

فسجستان، فطخارستان، حتى جاء أخيراً دور خراسان. ومن هنا، فإنّ معركةَ نهاوندَ تُشْبِهُ إلى حدٍّ كبيرٍ معركةَ القادسيةِ، فكما كانتْ هذه معركةَ العراق كلِّهِ، كانت تلك معركة البلاد الفارسية كلها.

وهنا لا بد أنْ نتساءلَ: ما السبب الكامن وراء النتائجِ الباهرةِ التي حقَّقَها العربُ في هذه المعركةِ؟

أيرجعُ ذلك إلى تكتيكٍ مُبْتكرٍ كان يجهلُه الفرسُ، أم إلى مباغتَةٍ استطاع العربُ تحقيقها على عدوهم؟

لا هذا ولا ذاك. حتى عملية الاستدراج التي قام بها القعقاعُ لا يمكن عَدُّهَا من نوعِ التكتيك البارعِ، وكذلك فإنّ قَبولَ الفيرزانِ بهذا الاستدراج لا يمكن عَدُّهُ نوعاً من الغفلةِ. نقول ذلك لعدة أسباب:

١ ــ لأنّ القعقاعَ لم يستدرجْ عدوَّهُ إلى كمينٍ يُفاجئه من الخلف، بل استدرجه إلى مُواجهةِ جيشٍ يقفُ أمامَه، و ينتظرُ ساعاتٍ قبل أنْ يبدأ هجومَهُ.

٢ ــ لأنّ هذا الاستدراجَ لم تكنْ غايتُهُ جرَّ العدوّ إلى أرضٍ لا تلائمه، ثم فرض المعركة عليه وهو فيها، بل كانتِ الغايةُ منه استخراجِ العدوِّ من خنادقه، ثم إجبارُهُ على خوضِ جولةٍ حاسِمَةٍ كان مُسْتعِداً لها من الناحيتين الماديةِ والنفسيةِ.

٣ ــ كان من الممكنِ اعتبارُ الفيرزان مُخْطِئاً لو أنّ جيشَهُ كان أقلَّ عدداً من جيشِ عدوِّهِ. فأمّا إذا عرفنا أنّ جيشَهُ كان ثلاثةَ أضعافِ الجيشِ العربيِّ أو أربعةَ أضعافِهِ، فإنَّ قبولَهُ لخوضِ المعركةِ الحاسمةِ أمرٌ كان يفعلُهُ أيُّ قائدٍ في مكانه.

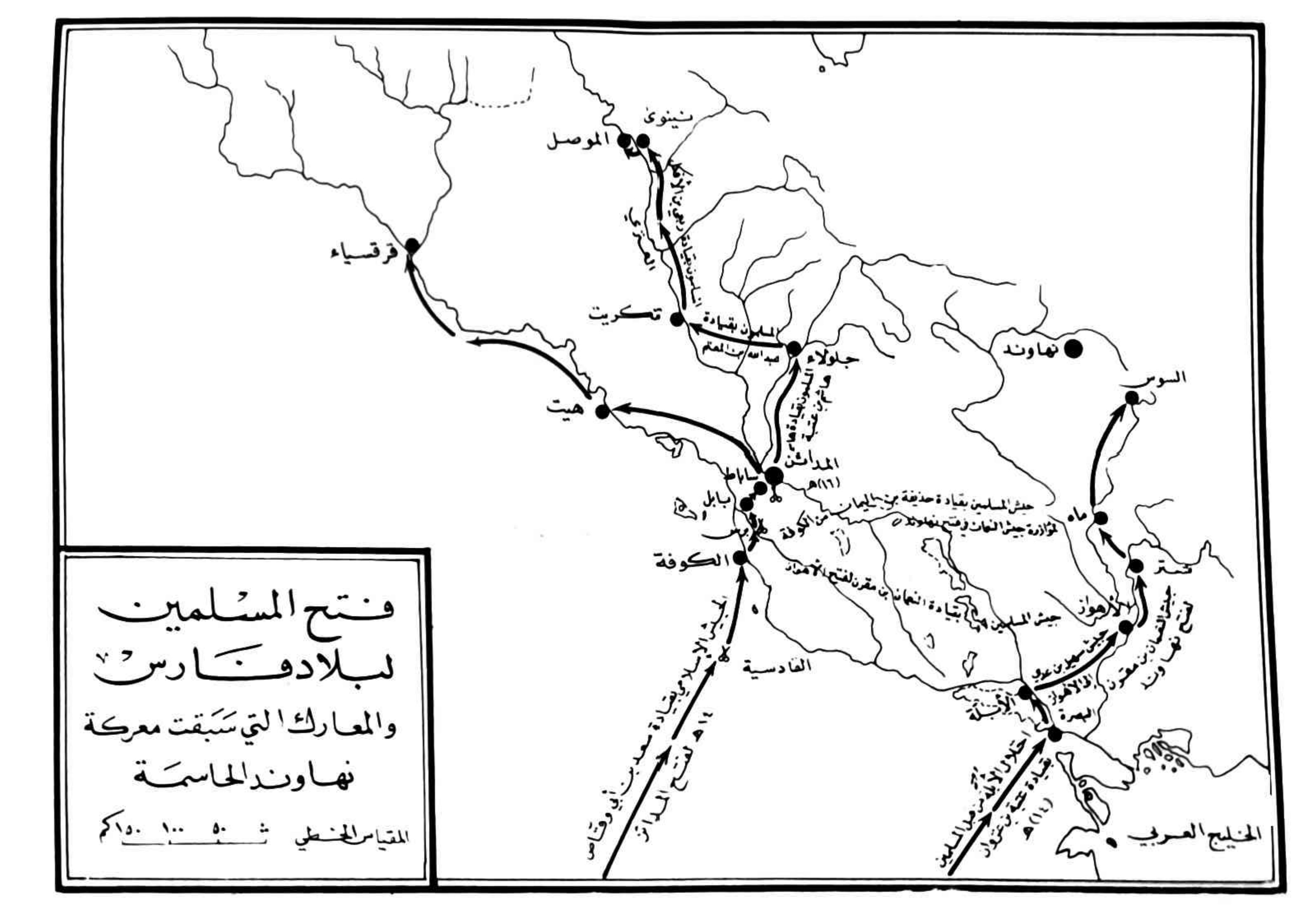
إذن ما السبب الحقيقي؟

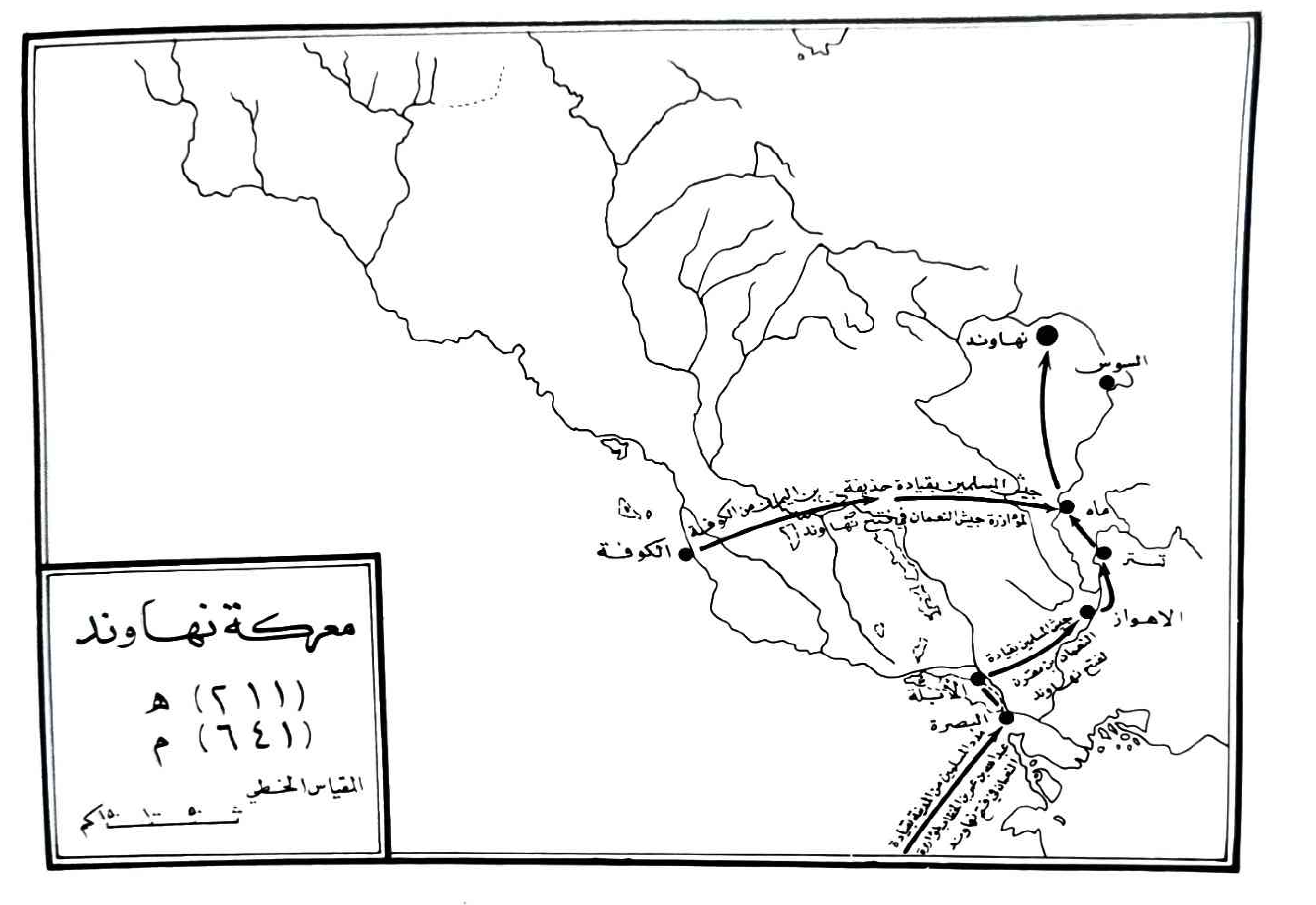
في رأينا أنّه الإيمانُ والثقةُ بالنَّصْرِ في الجانبِ العربي، والخذلان وانحطاط المعنويات إلى أبعد حد في الجانبِ الفارسيِّ. والدليلُ على ذلك وضعُ الجيشين قبل الجولةِ الأخيرةِ، إذ لم يحدثْ في كلّ التاريخِ العسكري أنْ وقف جيشٌ لا يزيدُ على أربعين ألفاً موقف المحاصِر لجيش عُدَّتُهُ مائةٌ وخمسون ألفاً بكامل أسلحتهم وعتادهم.

ومن هنا نفهمُ المعنى الكبير لكلمة عليٍّ بنِ أبي طَالبٍ إلى عمرَ بنِ الخطَّابِ حين استكثر حُشُوْدَ الفرسِ، واستقل جنودَ العرب:

«إنّا لم نكنْ نُقاتِلُ بالكثرةِ، بلْ كُنّا نقاتِلُ بالنصر».

الفهرس


فتح المسلمين
لبلاد فارس
والمعارك التي سبقت معركة
نهاوند الحاسمة
المقياس الخطي ٥٠ ١٠٠ ١٥٠ كم
الموصل
نينوى
قرقيساء
تكريت
المسلمون بقيادة
عبد الله بن المعتم
جلولاء
المسلمون بقيادة هاشم بن عتبة
نهاوند
السوس
هيت
المدائن
(١٦) هـ
ساباط
بابل
الكوفة
ماه
تستر
الأهواز
جيش المسلمين بقيادة حذيفة بن اليمان من الكوفة
لموازرة جيش النعمان في فتح نهاوند
جيش المسلمين بقيادة النعمان بن مقرن لفتح الأهواز
جيش النعمان بن مقرن لفتح نهاوند
جيش سعيد بن عمرو
القادسية
الجيش الإسلامي بقيادة سعد بن أبي وقاص
١٤ هـ لفتح المدائن
الأبلة
البصرة
احتلال الأبلة من قبل المسلمين
بقيادة عتبة بن غزوان
(١٤) هـ
الخليج العربي



معركة نهاوند
(٢١١) هـ
(٦٤١) م
المقياس الخطي
٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠كم
نهاوند
السوس
ماه
تستر
الاهواز
الكوفة
الأبلة
البصرة
جيش المسلمين بقيادة حذيفة بن اليمان من الكوفة
لمؤازرة جيش النعمان في فتح نهاوند
جيش المسلمين بقيادة
النعمان بن مقرن
لفتح نهاوند
مدد المسلمين من المدينة بقيادة
عبد الله بن عمر بن الخطاب لمؤازرة
النعمان في فتح نهاوند

معـــارك
وبطولات حـربيـــة
اسـلامية وعربيـــة

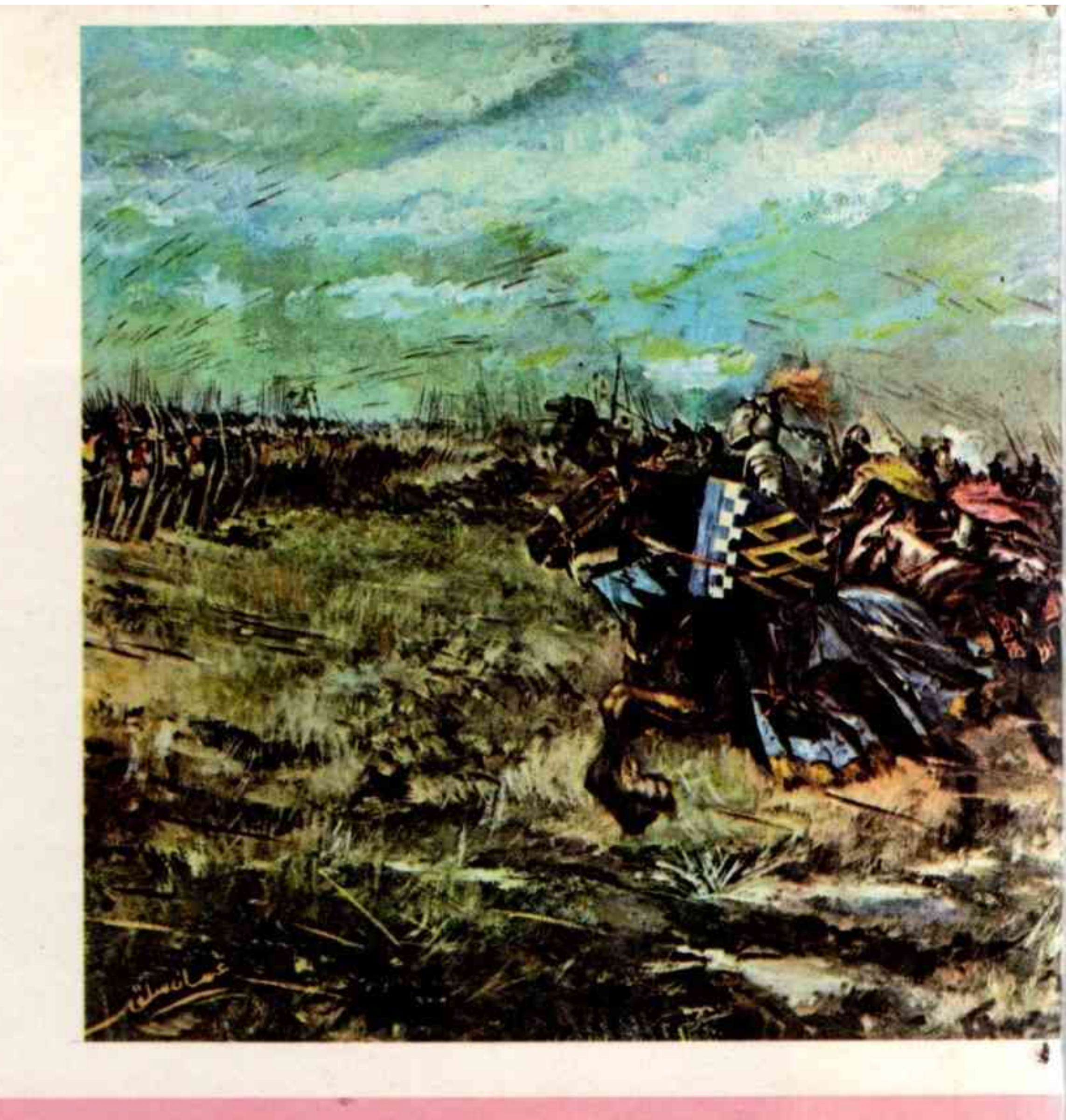
أشرف على تحرير هذه السلسلة

الدكتور : صالح الاشتر

الدكتور : عمر الدقاق

الأستاذ : محمد الأنطاكي

معارك وبطولات حربية اسلامية وعربية



الحدث الحمراء	وادي لكه	المنصورة	ذي قار
وادي المخازن	بدر الكبرى	عمورية	الذلاقة
فتح قسطنطينية	عين جالوت	ميسلون	الارك
الجبل الاخضر	اليمامة	نهاوند	احد
بلاط الشهداء	القادسية	اليرموك	حطين

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - المسلمية - المنطقة الحرة -